اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

الحياة الفكرية
في ضوء
الفلسفة الإسلامية

تأليف

الدكتور حسن الفاتح قريب الله

عميد كلية الآداب (حاليا)
وعميد الطلاب ورئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية
ومدير جامعة أم درمان الاسلامية بالانابة (سابقا)

مطبعة الأمانة
٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخـــل

الفلسفة والحياة

يظن كثير من الناس أن الفلسفة ضرب من ضروب البذخ الذهنى ، ونمط من أنماط الموقف السلبى تجاه القضايا والمشاكل الاجتماعية .

كما يظن هؤلاء — تبعا لذلك — أن الفيلسوف رجل انعزالى لا يحس بمشاكل أمته ولا يتفاعل مع قضاياها؛ ذلك لأن بوتقة الأسباب والبراهين التى أدخل نفسه فيها لا تسمح له بأن يتخذ موقفاً إيجابيا سريعا تجاه ماتعانيه أمته من صعاب فى حياتها اليومية : فهو عندهم — إذن — رجل متخلف اجتماعيا وإن تقدم فكريا . ويضيف هؤلاء أن الفلاسفة قوم حالمون يعيشون فى عالم خاص بهم ، لا يمت بصلة إلى الحياة والواقع[1] .

هذا ولم يدر هؤلاء أنهم بمثل هذا النوع من الاتهام إنما يسلبون الفلسفة أهم خصائصها ويجرون الفيلسوف إلى هاوية الجهالة .

فالبحث فى الفلسفة هو أولا وقبل كل شىء موقف من الحياة ، وهو

---

(١) الدكتور يحيى هويدى : مقدمة فى الفلسفة العامة — القاهرة ، الطبعة السادسة دار النهضة العربية ١٩٧٠ م ص ٢٤ ، والدكتور سعيد اسماعيل على : الفلسفة القاهرة ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م الصفحات ٤٥ ، ٥٨ ، ٧١ ، وبرتراند رسل : مشاكل الفلسفة ص ١٥٦ ، وموسيه : الفلسفة النظرية ، ترجمة نعمه الله كرم ص ٦٠ — ٦١ ، والدكتور محمد فتحى الشنيطى : المعرفة ص١٧، ٣١

يمثل أحد مستويات تفكير الانسان فى هذه الحياة ، ومن ثم فإن الفلسفة ليست ولا يمكن أن تكون بحال من الأحوال تحليقا بعيداً عن الحياة ، بل هى أشغال فيها وتعميق لها واكتشاف لأبعادها .

والفلسفة فى مسارها الفكرى لم يحدث أن ابتعدت عن واقع الأمم إلا بالقدر الذى تجعل فيه من جزئيات القضايا والمشاكل اليومية مبادىء عامة ، وأصولا كلية ، تساعد على فهم المشكلة فى إطارها العام ، وتمكن الفيلسوف من أن يضع الحل المناسب للمشكلة وفق التصور العام للجزئيات المماثلة والقضايا المشابهة .

فنظرة الفلسفة — إذن — للمشاكل والقضايا اليومية نظرة كلية ، تترفع عن الجزئيات وإن اتخذت من مجموعها أساسا لبحثها وموضوعا لدراستها ، ذلك أن المشاكل التى تلتقى بها الفلسفة فى مسارها مشاكل ممعنة فى جزئياتها وخصوصيتها ، وهى من الكثرة والتنوع بحيث تشغل وقت الفرد وتلف تفكيره فى إسارها الضيق ، فلا يجد مناصا من أن يستسلم لتيارها الذى لا يهدأ وأمواجها التى لا تنقطع . .

وليس من شك فى أن الاستغراق فى حل هذه الأشتات من المشاكل الجزئية من شأنه أن ينسج حول الإنسان غشاوة تحجب عنه الرؤية ، وتضيق أفق حياته ، وتحد من مسار تفكيره ، بحيث يصبح تفكيره قاصرا عليها ، ونظره محدودا فيها ، الأمر الذى يبعده عن صفة الكلية التى تمثل الحكمة النظرية — إلى صفة الجزئية التى تمثل الحكمة العملية[1]

---

(١) الدكتور يحيى هويدى : الفلسفة العامة ص ٢٣ ، ٢٣ .

والحكمة العملية كما هو معلوم لاتعنى شيئا سوى حسن التصرف ، أما الحكمة النظرية فهى حكمة طابعها التأويل والبحث النظرى والنظرة الشاملة للحياة[١] .

وباختصار فإن الفلسفة الكلية أو الحكمة النظرية تحاول أن تقيم بناء تركيبيا عن طبيعة الواقع ، وعن معنى الحياة وهدفها ، وعن أصل الكون ، كما أنها تقيم بناء آخر عن الإنسان ومعنى الحياة البشرية وهدفها وحرية الإرادة والأخلاق . . الخ . . أى صورة تركيبية للعالم الكبير (الكون) من ناحية ، وللعالم الصغير (الانسان) من الناحية الأخرى . ثم عن العلاقة بينهما بحيث تقدم لنا نظرية عن الوجود ككل أو الوجود بما هو كذلك[٢] .

---

(١) د . هويدى : مقدمة الفلسفة العامة ص ٢٢ .

(٢) الدكتور إمام عبد الفتاح إمام : مدخل إلى الفلسفة . القاهرة ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٥ — الصفحات ٦٣ ، ٦٤ .

الباب الأول

تاريخ الحياة العقلية

أو

(نشأة التفكير)

الفصل الأول

١ ـ التفكير .

٢ ـ العقل .

٣ ـ نشأة التفكير .

١ ــ التفكير

التفكير سلسلة متصلة وعمل عقلى يمثل نا تجه تراثاً حضاريا يخلفه السابق للاحق ، إنه فى مجموعه أشبه مايكون بكتاب تاريخى تمثل كل لحظة من الزمن صفحة من صفحاته أو فقرة من فقراته ، تكتمل بها السابقة وتبنى عليها اللاحقة . لقد أسهم كل فرد من بنى الإنسان فيه بجهده ، وسجل فى سطوره حياته العقلية ، فهو إذن سجل كامل أو فى طريق الكمال لتاريخ الإنسان الفكرى والحضارى [١] ، ومن ثم فإن الباحث فى تاريخ الحياة العقلية لا بد أن يأخذ فى الاعتبار كل لحظة من اللحظات التى مر بها تاريخ الإنسان لا فى بيئة معينة ، ولا بين أفراد شعب واحد ، بل فى جميع البيئات وبين جميع الشعوب ، إذ الفكر الفلسفى غير الحادث التاريخى . . ولئن جاز أن تطلق (المدافع) أو (يقص الشريط) إيذانا ببدء حادث تاريخى معين فإنه لن يحدث ذلك فى مجال الفكر أو العقل [٢] .

٢ ــ العقل

لقد وجد العقل مع الإنسان ، وبقى هو هو فى جوهره ، استعملته الأمم فى الماضى السحيق ، فاستحدثت الصناعات والعلوم والفنون ،

---

(١) أ س، رابوبرت : مبادىء الفلسفة. ترجمة أحمد أمين ص٩٣ ، والدكتور محمد يحيى الشنيطى : المعرفة ص ٥ .

(٢) د . إمام عبد الفتاح : مدخل إلى الفلسفة، هامش ص٣٥ .

ولقنتها لليونان فأغنتهم عن بذل الجهد والوقت فى استكشافها بأنفسهم وفضلا عن الفنون والعلوم نجد عند الأمم الشرقية القديمة قصصا دينية وأفكاراً عن العالم والحياة إذا اعتبرنا موضوعها ومغزاها رأيناها حقيقة بأن تسمى فلسفية ، فقد نظروا فى أسمى المسائل ، مثل الوجود ، والتغير ، والخير ، والشر ، والأصل والمصدر ، فكان التوحيد والشرك ، وكانت الثنائية الفارسية ، وكانت وحدة الوجود عند الهنود ، وكان غير ذلك ، ولم تخرج الفلسفة فيما بعد عن هذه النظريات الكبرى ، بل قد نستطيع أن نجد لكل فكرة يونانية مثيلة شرقية تقدمتها ، أو أصلا قد تكون نبتت منه .(١)

٣ — نشأة الفكر

واعتماداً على ماتقدم وبناء على ما قاله أرسطو من أن الكمال مبدأ وليس نتيجة فإنه لمن خطل الرأى أن ننساق وراء من يسلبون إنسان ماقبل طاليس فكره وفلسفته وعبقريته ونبوغه وابتكاره، ليردوه بدافع الهوى والعصبية والشعوبية إلى شعب معين وبيئة خاصة ، وليصبوه فى زمن لايتعدى القرن السادس قبل الميلاد .

إن البشرية كلها — الشاملة لجماعاتها المتفرقة — شريكة فى كل مايصدر عن بعضها من حضارات ومدنيات ، ولكل واحدة من هذه الجماعات البشرية ضلع ومساهمة فى هذه الثروة الهامة .

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، مقدمة .

والجماعة التى تكون فى وقت من الأوقات آخذة لا بد أنها كانت فى وقت من الأوقات معطية ، ومن يزعم غير ذلك فعليه بتصفية الحساب وما هو بمستطيع . وإن طالبنا هو بتصفية حساب ما ندعى فدليلنا على ما وقع فى عصور ماقبل التاريخ ما هو واقع فى عصور التاريخ[١] .

على أننا لا ننكر ولا ننفى أن بعض الشعوب لاعتبارات وملابسات خاصة قد تسبق البعض الآخر فكريا أو اجتماعيا أو اقتصاديا مثلها فى ذلك مثل سبق بعض الأفراد لبعضهم فى نظم الحياة ووسائل العيش ومناهج البحث والتفكير ، غير أن تقرير ذلك لا يعنى أن أصل الفطرة هو السبب فى التفوق . . فليس هناك شعب متفوق لأنه من جنس أبيض ولا هو منحط لأنه من جنس أسود[٢] ، كما ينحدر بعض الكتاب فى تفكيرهم حين يتخيلون ذلك ، كما أنه ليس هناك شعب آرى تؤهله طبيعته لدراسة الفلسفة وآخر سامى ليس أهلا لدراستها وفهمها[٣] ، فالشعوب كلها متساوية فى أهليتها للمعرفة والفلسفة ، كما هى متساوية فى قدرتها على الاستجابة للظروف المختلفة التى تجابهها اختيارا أو تضطر لمجابهتها قسراً وكرها .

والعقل الذى منحه أفراد شعب معين هو نفس العقل الذى منحه أفراد الشعب الآخر ، هذا ولئن كانت الفلسفة هى شوق وجد وراء معرفة الأسباب الخفية للأشياء[٤] ولئن كان العقل هو أداة تلك المعرفة

---

(١) د . سليمان دنيا : التفكير الفلسفى الاسلامى ص ٢٨٦

(٢) جرجى زيدان : طبقات الأمم ص ٥٥ ، ٢١٨

(٣) توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ٢١

(٤) أحمد أمين : مبادىء الفلسفة ص ٥ (مترجم)

وسبب ذلك الإدراك ، فإن الفلسفة إذن هي هدف كل إنسان وجد في هذا الكون[١] ، وإن كل إنسان مهما كان مستواه الثقافي أو العلمي يتفلسف في فهم تلك الحياة وفي كشف معمياتها[٢] على أن ذلك لا يعني أن جميع الناس فلاسفة بالمعنى الاصطلاحي للكلمة .

فنحن كما لا نسمي زجاجا أو قفالا من أصلح في بيته لوح زجاج كسر أو عالج قفلا ، إنما الزجاج أو القفال من اتخذ ذلك العمل حرفة في حياته ولم يقتصر على التعليم الصحيح بل أكسبته المثابرة على العمل مرانة وبراعة ، وعرف كيف يصل إلى نتيجة خير مما يصل إليها غير المتمرن بجهد أقل من جهده — فكذلك لا نسمي فيلسوفا إلا من كان أهم أغراضه في حياته درس طبائع الأشياء وتعلقها ، وعدته في ذلك فكره ، وكان له بمزاولة ذلك قدرة على إدراك الأشياء بسرعة .

---

(١) أحمد أمين : مبادىء الفلسفة ص٢ (مترجم)

(٢) الشنيطي : المعرفة ص ٢٥

الفصل الثانى

١ – دعوى المعجزة اليونانية .
٢ – مكان الفكر اليونانى .

١ — دعوى المعجزة اليونانية

إن راية الشعوبية ومزمار التفرقة العنصرية قد أغرى كثيرين بالانضمام إليه ، حبا فى الشهرة ورغبة فى التحدى والمنافرة وجريا وراء التشدق بالغرائب والتعالم بالبدع والنقائض ، فانتفخ تبعا لذلك موكب التطبيل للفكر اليونانى ، وغمس المنضمون الجدد فكرهم فى حجج العنصريين وبراهينهم ، فأصابتهم بالتعصب لهم ولليونان غشاوة سدت عليهم آفاق الفكر ، وضيقت عليهم ما رحب من مجالاته[١] ، فصرنا نقرأ لهم فى كتب الفلسفة حججا غير فلسفية ، وبراهين غير منطقية ، عمادها الأول والأخير التقليد والظن . والتقليد غير حجة ، والظن — كما هو معلوم — لا يغنى من الحق شيئا .

إننا إذ نصحح هنا مسيرة الفلسفة إنما ندعو الإنسان — وقد تحرر سياسيا من وطأة الغير — أن يتحرر فكريا من آثار تلك الوطأة ، فلا يردد آراء الغير دون وعى ، ولا يقود فكره بفكرهم دون تدبر ، إن الباحث المعاصر لم يعد يقبل ما يشاع من أسطورة المعجزة اليونانية التى يقال إنها خلق عبقرى أصيل جاء على غير مثال[٢] أو أنها خلق من العدم[٣] ، فتلك مزاعم — فى نظره — لم يعد لها وجود ، ودعاوى لا أساس يدعمها.

---

(١) العماد : التفكير فريضة اسلامية ص ٦٥–٦٦

(٢) إمام عبد الفتاح : مدخل الى الفلسفة ص ٣٥ – ٣٦

(١) شارل فرنر: الفلسفة اليونانية — ترجمة تيسير شيخ الأرض ٢١

ولقد صدق شارل فرنر حين قال إنه حينما يتكلم المرء عن المعجزة اليونانية ويعنى بها خلقا من العدم يحق لنا أن نقول إنه ما من معجزة بهذا المعنى[١] .

كما صدق كذلك الدكتور إمام عبد الفتاح إمام حين قال : أما القول بأن الفلسفة اليونانية كانت خلقا عبقريا أصيلا جاء على غير مثال فهو قول لامعنى له . ويضيف : فإذا كانت الفلسفة هى عصر ما يعبر عنه بالفكر . . وإذا كان أى عصر من العصور هو نتيجة للعصور السابقة وتمهيد للعصور التالية ، انتفى أن يظهر فى التاريخ خلق عبقرى أصيل على غير مثال[٢] .

إن المشكلة فى الواقع تقوم على افتراض خاطىء هو أن كل ما يكتب أو يسطر عن نشأة الفلسفة هو صحيح لا يتطرق إليه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهذا الافتراض إن سلم به لسلمنا بأن كل مكتوب صحيح لا لسبب إلا لأنه مكتوب ، ولعلك توافقنى بأن مثل هذا الكلام هراء من وجهة النظر المنطقية ، فالحق لا يعرف بالرجال أو بمؤلفاتهم وإنما إذا عرف الحق عرف أهله[٣] .

أعود فأقول : إن أى دعوى لا يسندها برهان هى دعوى باطلة لا تصلح أساسا يعتمد عليه ، ولا سندا يرتكز إليه ، والبرهان إن قام

---

(١) شارل فرنر : الفلسفة اليونانية ترجمة تيسير شيخ الأرض ص٢٦
(٢) إمام : مدخل إلى الفلسفة هامش صفحتى ٣٥ ـ٣٦
(٣) الإمام الغزالى : المنقذ من الضلال ص ١٠٨ .

في مثل هذه الدعاوى ، إنما يقوم على الاستقراء ، والاستقراء في مثل هذه الأحوال مستحيل إذ أنه ينبغي أن يكون هناك باحث أو أكثر استقرأ تفكير أفراد بني الإنسان منذ نشأ الكون حتى عصره بحيث لا يشذ عن استقرائه أحد ولا ينـد بشر ، إنه إن فعل ذلك وكانت نتيجة استقرائه أن الفكر اليوناني كان معجزة وأنه خلق أصيل عبقري جاء على غير مثال — لم يسعنا إلا أن نسلم بنتيجة استقرائه ، غير أنه مادام ذلك لم يحدث بل وليس في الإمكان حدوثه — فإن أي حكم — إذن — في مثل هذه القضايا يعتبر حكما عاما ، والحكم العام (غير المقصود) أو (المحصور) هو قضية مهملة ، والمهملات من القضايا في حكم الجزئيات ، والقضايا الجزئية لا تصلح برهانا للقضايا الكلية ولا حجة لها .

لقد مر تاريخ الفكر بحقب مختلفة سطر بعضها التاريخ وأهمل البعض ، ولئن عثرنا مؤخرا على صفحات مما سطر فإنه لمن غير العدل أن نحكم بها على مستوى الفكر في غيرها مما لم نقرأه أو نسمع به ، فالحكم على الشيء ، فرع عن تصوره ، ونحن لم نتصور بعد مستوى الفكر عند كثير ممن سبقوا طاليس ، إذ الصفحات الأولى والأخيرة من كتاب الفكر ما زالت مفقودة . ومالم نعثر عليها فلن نستطيع أن نجزم برأي معين .

يقول الدكتور رادا كريشنان في مقدمته لكتابه الذي اشترك فيه مع نخبة من كبار علماء الهند وفلاسفتها عن تاريخ الفلسفة الشرقية

والغربية ما يأتى : إنه يصدق على تاريخ الفلسفة ما يصدق على العالم إذ يصفه أحد كبار شعراء الفرس بأنه أشبه بمخطوط قديم فقدت أول صفحاته وآخرها ، ومنذ أدرك الإنسان مستوى الوعى بوجوده وبالعالم وهو يحاول أن يكتشف هذه الصفحات المفقودة .

٢ — مكان الفكر اليونانى

إننا لا نبخس اليونانيين قدرهم ، وليس من الإنصاف للفكر الإنسانى أن نفعل ذلك ، فما لا نزاع فيه أن نصيب الأمة اليونانية فى الفكر الإنسانى نصيب كبير ، ولا نبالغ حين نقول إنه أعلى نصيب مكتوب عرفناه عن السابقين حتى الآن . ولا حاجة بالأمة اليونانية معه — فى نظرنا — إلى انتحال الدعوى لها واغتصاب الفخار بغير دليل ، وحسبها أنها أخرجت للعالم مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو فى ثلاثة أجيال متعاقبة مع من أخرجتهم من الحكماء السابقين واللاحقين ، وأنها تمد من شعرائها أمثال هوميروس واسكايلاس وسفوكليس وأرستوفان ، ومن علمائها ومؤرخيها ذلك الطراز الأول الذى تلاحق عبر مدى ثلاثة قرون فى عصر لم يعرف فيه أحد يضارعهم أو يقاربهم فى هذه العلوم ، ومعهم رهط من نوابغ الفن وأساطين السياسة والحكم يوازنون نظراءهم فى كل أمة وربما يرجحون أحيانا على أولئك النظراء بالكثرة والقيمة .

حسب الأمة اليونانية هذا الفخار الذى يقر به جميع المنصفين من

الشرقيين والغربيين ، فأما أنها استأثرت بالقيم الإنسانية العليا فى الذوق والفكر والخلق فتلك هى الدعوى التى يروجها المغرض ولا يسلمها التاريخ ، فإذا كانت الشهادة لها بهذا الاستئثار هى المقدمة اللازمة للوصول إلى النتيجة المقصودة من تحقير الشرق وتسويغ استعباده فهى مناجز يقابلها الشرقيون بما ينبغى لها من التصحيح والتفنيد ، وإنها لينبغى لها أن تصحح وتفند لغرضين واجبين :

— أحدهما تمحيص الحقيقة .

— والآخر محو الأثر السيء الذى تعقبه فى نفوس أبناء الشرق فتوقع فيها اليأس ، وتقضى عليهـا بالمهانة ، بحكم الخصائص النظرية التى لا تتغير ولا تتبدل مع الزمن فى زعم الزاعمين .

الفصل الثالث

من آثار التعصب للفكر اليونانى

ا — فى المسيحية .

ب — فى الإسلام والتاريخ .

جـ — فى العلم ومنهج البحث .

من آثار التعصب للفكر اليوناني

لقد حصر هؤلاء الشعوبيون في طبيعة الغربي من وراء اليوناني كل قيمة إنسانية عالية من مزايا الفكر أو الحكم أو الخلق ، وقابلوه في هذه الخصائص بالشرقي ، فخرج الغربي بمزية العقل الذي يطلب العلم للعلم ، ومزية الحكم الذي يقوم على حقوق الشعب ، ومزية الخلق الذي تتقدم به الفضائل الاجتماعية على دواعي الأنانية ودوافع الغريزة ، وخرج الشرقي من هذه الموازنة بالطرف النقيض كأنهما متقابلان على خط من خطوط المسطرة لا يتلاقى طرفاه من أقصاه إلى أقصاه[1] .

أضف إلى ذلك أنه بلغ من رغبة الأوربيين ومن ساروا في ركبهم في ترجيح الغرب كله باسم اليونان أن فريقا منهم :

١ ــ تنكر المسيحية لأنها ثمرة شرقية ، وزعم بعض هؤلاء أن المسيحية ثمرة الفكرة اليونانية عن طريق بولس الرسول وجماعة الفلاسفة المسيحيين الذين طبقوا الدين على الفلسفة بعد القرن الأول للميلاد ، وذكر هؤلاء من براهينهم على ذلك أن الأناجيل كتبت باللغة اليونانية وأن كلمة الانجيل نفسها لمعين البشارة من لغة اليونان[2]

٢ ــ وتنكر الفريق الآخر للاسلام وتعاليمه ، بل وللتاريخ

---

(١) توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ٢١ ، والأستاذ عباس محمود العقاد : إبليس ص ٨٢ ــ ٨٤ . وأبو الحسن على الحسني : إلى شاطىء النجاة ترجمه عبد الله عباس الملواروى الندوى ص ٣ فما بعدها .

و . أ . س ــ رابوبرت : مبادىء الفلسفة ، ترجمة أحمد أمين ص ٩٦ .

(٢) العقاد : إبليس ص ٨٢ .

فأصبح ينسب كل الأنبياء أو معظمهم — دون دليل — إلى البلاد العربية متجاهلا[1] ، أن الخلق جميعا عباد الحق ، وأن هداية الله ليست قصرا على شعب دون آخر بل الجميع أمام استحقاق الهداية سواسية لا فضل لعربى فيها على عجمى ولا لأسود على أبيض[2] . بل إن القرآن لينص صراحة بأن كل أمة من الأمم أيا كان عصرها أو بيئتها كانت محط رحمة الله وفضله فأرسل لها رسولا بلسانها ليخرجها من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والايمان يقول تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »[3] : ويقول : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت »[4] ويقول : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »[5] .

ويقول تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا بلسان قومه »[6] . بل إن فضل الله على عباده اقتضى أن يرفع عن مخلوقاته العذاب حين تمر فترة لا يصلهم فيها رسول يقول تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[7] » ويقول أيضاً : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى

---

(١) الدكتور محمد سعيد رمضان : كبرى اليقينيات الكونية ص ٢٠٨

(٢) صحيح مسلم : باب المساجد . وصحيح البخارى باب التيمم والمساجد .

(٣) فاطر ٢٤

(٤) النحل ٣٦

(٥) النساء ١٦٥

(٦) ابراهيم ٤

(٧) الإسراء ١٥

القرى إلا وأهلها ظالمون[١] » .

فالله سبحانه وتعالى كما أرسل الرسل للعرب وللعبرانيين كذلك أرسلهم لليونانيين[٢] وبقية الشرقيين والغربيين بل أرسل بعضهم للانس والجن كافة .

ولقد أكد القرآن عالمية رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حين قال : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا[٣] » وقال : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا[٤] » وقال : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به[٥] » . وقد أكد رسالة غيره من الأنبياء حين قال : « وأنزلنا التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس[٦] » . وقال : « قل من أنزل

---

(١) القصص ٥٦

(٢) ورد فى كتاب عيون الأنباء أن بعض الفلاسفة كان حين يعجز عن إجابة سائليه يحملهم إلى النبى كما ورد فيه أن أغاثوذيمون هو أحد أدباء اليونانيين والمصريين ص ٣١ وفيه أيضا : أن بندقليس الفيلسوف كان فى زمن داود النبى عليه السلام وكان قد أخذ الحكمة عن لقمان بالشام ثم انصرف إلى بلاد اليونان ص٦١ . وفيه أيضا أن فيثاغورس أخذ الحكمة عن أصحاب سليمان بن داود عليهما السلام بمصر حين دخلوا إليها من بلاد الشام ثم رجع إلى بلاد اليونان واعترف بأن ما استفاده من معرفة من مشكاة النبوة ص٦٢ وفيه أن جالينوس أورد فى مواضع متفرقة من كتبه ذكر موسى والمسيح ص ١١١، ١١٧ وفيه أن فيلدافوس الملك أحضر إلى بلاد اليونان جميع الكتب التى كانت عند اليهود من التوراة والأنبياء وما جرى مجراها واستقدم اثنين وسبعين رجلا من جميع الأسباط لترجمتها ص١١١ . وفيه أن تاريخ اليونانيين أصح التواريخ — أعنى تاريخ التوراة والأنبياء التى عندهم ص ١١٢

(٣) سبأ ٢٨

(٤) الأعراف ١٥٨

(٥) الجن ١

(٦) آل عمران ٤

الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس[١] » . وقال : عن سيدنا يونس عليه السلام : « أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس[٢] » . وقال عنه أيضا : « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم[٣] » : فالرسالة الإلهية إذن — لم تستثن شعبا معينا ليكون سبيله إلى المعرفة مخالفاً لسبيل غيره من الناس ، وإنما عمت الجميع على اختلاف أزمانهم وأقطارهم ، وليس هناك دليل واحد عقلى أو شرعى أو تاريخى ينفى وصول الرسالة إلى شعب بعينه .

على أن تقرير ذلك لا يعنى أن الرسل الذين سبقوا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم كانت رسالتهم كرسالته فى العموم والشمول ، فالقرآن لم يستعمل كافة وجميعا إلا عند الإشارة إلى رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أضف إلى ذلك أن الحديث النبوى حدد فى صراحة دائرة رسالة كل نبى حين قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ، كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا فأى رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب وبين يدى مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة »[٤].

هذا وفى القرآن آيات كثيرة تدل على تحديد دائرة رسالة عدد

(١) الأنعام رقم ٩١
(٢) يونس رقم ٢
(٣) يونس رقم ١٠٨
(٤) صحيح مسلم باب المساجد ، وصحيح البخارى باب التيمم والمساجد .

من الرسل ممن سبقوا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ومن بينها قوله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحا »[١] وقوله : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما »[٢] وقوله : « وإلى عاد أخاهم هودا »[٣].

وقوله : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون »[٤] وقوله : « لقد كان لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده »[٥] وقوله : « لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط »[٦] وقوله : « فلما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط »[٧] وقوله : « كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين »[٨] وقوله : ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين[٩] » وقوله : « وإلى مدين أخاهم شعيبا[١٠] » وقوله : « فتولى عنهم

---

(١) هود ٦١

(٢) العنكبوت ٤١

(٣) هود ٥٠

(٤) الأنبياء ٥١

(٥) الممتحنة ٤

(٦) هود ٧٠

(٧) هود ٧٥

(٨) الشعراء ١٦٠

(٩) العنكبوت ٢٨

(١٠) هود ٨٤ والاعراف ٨٥

وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين[١] » وقوله «وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها[٢] » وقوله : « وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين[٣] » وقوله : « قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا[٤] » وقوله : « وإذ قال موسى لقومه إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم[٥] » وقوله : « فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم، قد جئناك بآية من ربك[٦] » وقوله: «وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل[٧] » وقوله : «ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله »[٨] وقوله : « وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا[٩] » وقوله « وإن إلياس لمن المرسلين إذ قال

---

(١) الأعراف ٩٣
(٢) الأعراف ١٤٥
(٣) الأعراف ١٤٢
(٤) طه ٩٣
(٥) البقرة ٥٤
(٦) طه ٥٧
(٧) الأعراف ١٠٤ — ١٠٥
(٨) البقرة ٢٤٦
(٩) البقرة

لقومه ألا تتقون »[١] وقوله : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين »[٢] وقوله : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل »[٣] وقوله . « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »[٤] .

أعود فأقول إن أى محاولة ترمى للحد من هداية الله للبشرية هى عمل مجانب لتعاليم الإسلام، مناقض لنصوصه ، فالله ملك الناس إله الناس، والناس ليسوا قصرا على الشعب العربى أو سكان مايسمى حاليا بالبلاد العربية ، ومن هنا ندرك مدى جهل من قد يتصور بأن الله عز وجل إنما خص منطقة الجزيرة العربية بالرسل والأنبياء .. هذا إلى أن الأنبياء الذين أرسلوا إلى منطقة الجزيرة العربية هم بعض يسير فقط من مجموع الأنبياء الذين أرسلوا إلى مختلف الجماعات من الناس فى شرق العالم وغربه[٥] طبقا لقوله تعالى : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك[٦] » . أخلص مما تقدم أن تلك الفرية التى نشرت فى العالم

(١) الصافات ١٢٣
(٢) يونس ٩٨
(٣) آل عمران ٤٨
(٤) الصف ٦
(٥) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى : كبرى اليقينيات الكونية ص ٢٠٨
(٦) النساء ١٦٤

الفكرى كانت إلى حد كبير متأثرة بالروح التى سلبت الشرقيين الفكر ومنحت الغربيين — ممثلين فى اليونان — العقل . فالأولون عند هؤلاء المتعصبين وسيلتهم إلى المعرفة هى الوحى ، بينما الأخيرون وسيلتهم إلى المعرفة ، هى العقل ، كأنهم بذلك يريدون أن يؤكدوا أن اليونان أو الغربيين لم يرسل لهم رسول أو نبى وإنما كان رسولهم هو العقل ، وهذا — كما ذكرت — يناقض التاريخ والدين .

٣ — وتنكر الفريق الثالث للعلم ومنهج البحث ، فضم المصادر والمراجع إلى :

(ا) مراجع إلهية أو دينية .

(ب) مراجع بشرية أو غير دينية

فأهمل ماوضعه الله وماأثبته فى كتبه ، رفض واصطفى وآثر ما كتبه البشر مع إيمانه واعتقاده بأن الخطأ على الأخيرين وارد وعلى الأولى غير وارد .. فكأنه إذن اعتمد على مراجع غير موثوق بها ١٠٠ ٪ وأهمل مراجع موثوقا بها ١٠٠ ٪ وهذا فى مجال البحث غير سليم .

إن الأمانة العلمية تقتضى أن يتجرد الباحث من الهوى والغرض والحكم المسبق حين يعالج أمراً من الأمور أو يتناول مسألة من المسائل العلمية ، فأما أن يتخذ موقفا مسبقا تجاه مرجع معين لالشىء إلا لأنه لايروق له أو لأن (التعالم) أو التحرر يقتضى أن يغض النظر عنه إن لم توقفه الجراءة إلى نبذه وإهماله فإن ذلك غير سليم من وجهة النظر العلمية .

إن منهج البحث يقتضى أن يحدد الدارس موقفه من المراجع العلمية

فهو إما أن يقبلها كلها أو بعضها لذاتها ودون مراعاة لواضعها أو يرفضها كلها أو بعضها لذاتها دون مراعاة لواضعها ، أو يقبلها كلها أو بعضها لا لذاتها بل مراعاة لواضعها ، أو يرفضها كلها أو بعضها لا لذاتها بل مراعاة لواضعها

أما أن يحيد الباحث عن هذا التقسيم العقلي فيصنف المراجع وفق التعصب والهوى إلى مراجع دينية يسقطها من حسابه وأخرى غير دينية يجعلها مرتكزا لبحوثه ومجالا لدراسته سواء أقبلها كلها أو بعضها راعى واضعها أو لم يراعه .. فإن ذلك يدعو للتدبر والتفكر ؛ ذلك لأن الدافع يصبح حينئذ دافعا مذهبيا لا علميا وحزبيا لا فكريا ، ومتى ما انزلق الباحث إلى هوة المذهبية والحزبية فارق ميدان العلم وجانب جادة الصواب[1] .

على أن المراجع الدينية التي أسقطها مثل هذا من حسابه لم تخرج عن كونها مراجع مهما كان موضوعها أو واضعها فإخراجها إذن عن دائرة البحث والدراسة إخراج لذات الدارس من ميدان الموضوعية إلى الميدان المقابل لها ، فقد امتزج الفكر الفلسفي الممثل في المراجع البشرية بالتفكير الديني الممثل في المراجع الإلهية في شتى عصور الانسانية ، حتى ليمكن القول بأن كل محاولة ترمي إلى الفصل التام بينهما تنتهي لا محالة

---

(١) راجع المنهج الذي اتبعه الأستاذ يوسف كرم في كتابه تاريخ الفلسفة اليونانية إذ قال بعض الكتب غير العربية وحذر من قراءة بعض الكتب العربية مدعياً أن فيها خلطاً كثيراً وتقديماً وتأخيراً — هذا ولم يشر إلى مواضع الخطأ في هذه ولا الصواب في تلك كما لم يشر إلى الميزان الذي استخدمه في نقده .

إلى العجز عن فهم كليهما[1].

فالفلسفة بمثابة الشجرة جذورها الميتافيزيقا وجذعها العلم الطبيعى وأعضاؤها باقى العلوم ، فهى إذن بنت الدين وأم العلم .

هذا ولولا المراجع الدينية ما كانت هناك مراجع فلسفية ، وما كان هناك تفكير منطقى سليم ، ففضل المراجع الدينية على المراجع الأخرى من الأهمية بحيث لا يمكن التغاضى عنه بله إهماله وطرحه .

(١) توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ٢١ .

الباب الثانى

معالم التفكير

تمهيد .

تختلف معالم التفكير[1] وطرق التناول والعرض باختلاف ثقافة المفكر وبيئته ومعتقداته وظروفه الاجتماعية والصحية والنفسية ، كما تختلف تبعا لذلك نتائج مثل هذا النوع من التفكير إيجابا وسلبا ، على أن جوهر التفكير في كل تلك الحالات يظل واحدا كما تظل خصائصه الجوهرية متطابقة مهما تباينت أنواع المعرفة أو تشابهت .

هذا ولبعض أنواع التفكير معالم بارزة لا تصل إلى درجة الخصائص الجوهرية وإن تلفعت بأثوابها العارضة وتدثرت ببرقعها المموه .

وتتمثل تلك المعالم في الأطار الآتية :

(أ) الإطار الفلسفي أو إطار الفلسفة غير الملتزمة .

(ب) الإطار الديني أو إطار الفلسفة الملتزمة .

(ج) الإطار العلمي أو إطار التجربة المتكررة .

(د) الإطار غير المنهجي « أو تفكير رجل الشارع » .

---

(١) آثرت أن أتخذ معالم التفكير عنوانا للبحث بدلا من العنوان الذي ألفه كثير من كتاب الفلسفة وهو خصائص التفكير .. إذ الخصائص كما هو معلوم ذات ظلال جوهرية بينما المعالم ذات ظلال عرضية وما دام الناس جميعا سواسية في جوهر التفكير وفي خصائصه الذاتية فلا مجال إذن للحديث عن التمايز الأساسي أو الخصائص الجوهرية بين نوع وآخر من أنواع التفكير .

فى إطار الفلسفة

أبرز معالم التفكير فى هذا الإطار ما يأتى :

(ا) الشك المنهجى .

(ب) الدهشة .

(ج) التأمل والتفكير .

(د) الكلية والعمومية .

(ه) الاستقلال أو الحرية الفكرية .

الفصل الأول

الشك

الشك المنهجي[1]

تمهيد :

لئن كان الشك صفة لازمة للعالم الباحث مهما كان ميدان بحثه ، فانه في ميدان الفلسفة ألزم ، ذلك لأن (من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى في العمى والضلال)[2].

والشك لا تعرفه الطبيعة البشرية كشيء مستقل مقطوع الصلة بما سواه ، ولكنه يظهر في العادة كجزء من عملية نفسية مركبة طويلة دقيقة ينقب فيها العقل في جميع الزوايا على المعلومات السابقة ، ويقلبها ظهرا لبطن ، ثم تنهض من هذه الأشتات صورة جديدة ، تمثل فرضا علميا أو حلا لمعضلة من نوع ما ، وقد يلي ذلك اختبار للفكرة الجديدة ينتهي باثبات صحتها أو ظهور فسادها[3] ، مما يؤدى إلى إثراء الحياة العقلية بالكتب والمؤلفات والآراء التي تنزع نحو الطرافة والجدة ، متدثرة بالحجج والبراهين . وبغير الشك المنهجي الذي ينشد المعرفة الحقيقية لا يكون تفلسف ؛ ذلك لأن الفلسفة موقف للعقل بإزاء نظريات أو معتقدات يسلم بها الناس عن جهل أو سذاجة ، وهى تأبى أن تقتنع

---

(١) الشك المنهجى هو ان ينبذ الشاك فى سبيل اليقين الأرض الرخوة والرمال ليعثر على الصخور والصلصال – راجع رينيه ديكارت مقال عن المنهج – القسم الثالث ترجمة محمود محمد الخضرى ص ٤٦ طبع القاهرة ١٩٣٠م وأسس الفلسفة ص١٩٨ . الدكتور نظمى لوقا : الحقيقة ص ٦٧ – ٦٨ طبع القاهرة ١٩٧٣

بالقضايا التقليدية التى ألف الناس الاقتناع بها والتسليم بصحتها ، أو على الأقل عدم إثارة الشكوك حولها .

فالشك إذن منهج يفرضه صاحبه بإرادته ، رغبة منه فى امتحان معلوماته ، واختبار معرفته وتطهير عقله من كل ما يحويه من مغالطات وأضاليل ، وهو يمكن صاحبه من البدء بدراسة موضوعه وكأنه لا يعلم عنه شيئاً ، فلا يتأثر بالأخطاء المألوفة أو المغالطات التى يتلقاها عن غيره من الناس أو يقرؤها فى كتب الباحثين .

والشك كذلك خير طريقة لاتقاء الأحكام المبتسرة التى تعرض للإنسان فى طريقه ، إنه خطوة تسلم إلى اليقين أو إلى المعرفة الصادقة وهو أيضاً نتيجة عزم العالم على أن يشك بنظام وبمقتضى مبدأ فى أى فكرة يمكن أن تكون مثارا للشك[1] .

فالعلم الأساسى إذن للشك المنهجى أنه وسيلة وليس غاية ، وهو إذ ينتهج فى مثل هذه الحالات لا ينتهج كأسلوب للتضليل ، إنما يتخذ حقا وينتهج صدقا ، إنه ليس مطلوبا لذاته لا يبرح عنه ولكنه يتخذ معبرا للحق ووسيلة للتصديق[2] .

---

(١) الدكتور توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ١٢٩

(٢) الدكتور نظمى لوقا : الحقيقة ص ٦٨

قادة الفكر المنهجى

لقد خاض غمار هذا الشك فلاسفة كثيرون وعلماء بارزون ، ليس هذا مجال ذكرهم إذ هم لا يحصون عداً ولا ينظمون عقداً ، غير أنهم على كثرتهم يجمعهم يقين بعد شك واستقرار نفسى بعد قلق واضطراب .

إن قائمة أعلام الشك المنهجى يتصدرها مفكرون نابغون ، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

١ — سيدنا ابراهيم عليه السلام : (١)

لقد كان منهج سيدنا إبراهيم فى الشك المنهجى أو حين مناقشة مجادليه ذا جانبين :

أحدهما جانب سلبى يؤدى إلى تخليص العقل من الأخطاء إذ ينزع فى هذا الجانب منزع التهكم فيتظاهر لمناقشة الجهل بحقيقة موضوع معين ثم يأخذ فى الاستفسار والتساؤل وإثارة الشكوك فى موضوع المناقشة رغبة فى أن يستدرج مناقشه إلى النتيجة التى يهدف إليها .

ثانيهما : جانب إيجابى يرشد إلى الحقيقة عن طريق توليد المعلومات

---

(١) اعلم أن المنهج التقليدى فى الفلسفة يستنكر ذكر مثل هذه الأسماء لأنه يقصر الفكر — دون وعى أو دليل — على نفر معين لا يقبل أن يلحق بهم غيرهم أو يضاف إليهم سواهم إن كانوا ذوى منحة إلهية ولكنه يثور ويعلى دمه ان ذكر أمثال هؤلاء .

ألا فليعلم هؤلاء المتقدون أننا لم نكتب هذا البحث إلا بعد أن تحررنا من إسار الحجر الفلسفى وانتزعنا حقنا فى الحرية الفكرية التى تسجل ما يمليه علينا الفكر الموضوعى لا الإسار التقليدى . لأمثال هؤلاء أقول : لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين .

أو ترتيب النتائج . وهذا الجانب له علاقة بالجانب السابق له إذ أنه على أنقاض الجانب السلبي تتبنى نتائج هذا الجانب حيث تتولد من تلك المناقشات مناقشات أخرى لا تروق للمناقش وخاصة إذا ما ترتب عليها إظهار تناقضه وتهافته في الحجة .

مواقفه الفكرية :

ويتضح هذا الموقف — الذي استخدمه سيدنا ابراهيم — بجلاء في موقفين فكريين وقفهما من مناوئيه :

١ — أولها موقفه من قضية عبادة الأصنام التي كان يعارضها ، فقد تهكم سيدنا ابراهيم من عابديها ، وأثار حول عبادتها تساؤلات مختلفة رتب عليها نتائج منطقية تولدت من المناقشة التي دارت بينه وبين معارضيه[١] .

وقد أوجز الله سبحانه وتعالى هذه القصة حين قال في القرآن الكريم :

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا

(١) محمد على الصابوني : النبوة والأنبياء ص ١٦٢ ــ ١٦٥
محمد احمد جاد المولى وآخرون : قصص القرآن الصفحات ٣٦ ــ ٤٤
عفيف عبد الفتاح طبارة : مع الأنبياء في القرآن الكريم الصفحات ١٠٧ ــ ١١٥

مدبرين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون[1] » .

ثانيهما موقفه من قضية الألوهية . . فقد سخر سيدنا إبراهيم من موقف من يعبدون المخلوقات الفانية التي لا تملك لنفسها حق الديمومة والثبات ونادى بعبادة فاطر السموات مستدرجا قومه من نقطة إلى أخرى حتى يحسم لهم خطأ ما هم فيه من شرك ، وباطل ما هم فيه من خرافة[2] بقول تعالى حكاية عن موقفه الفكري : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين[3] » .

(١) الأنبياء ٥١ــ٦٧

(٢) محمد أحمد جاد المولى وآخرون : قصص القرآن الصفحات ٤٧ــ٩٠ ، وطبارة : مع الانبياء في القرآن الكريم الصفحات ١١٦ ــ ١١٨

(٣) سورة الأنعام ٧٥ــ٧٩

هذا ويشبه هذا الموقف إلى حد كبير موقف سيدنا إبراهيم من الملك نمرود الذى حاج إبراهيم فى ربه فاستدرجه سيدنا إبراهيم حتى إذا ما مضى قدما فى المحاجة أوضح له خطأ منهجه فى التفكير وأسلوبه فى النقاش ورده إلى جادة الصواب[1]. يقول تعالى مصورا تلك المحاجة: «ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين[2] ».

٣ — موقفه من قضية الحياة والموت التى قصها الله سبحانه وتعالى حين قال « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم[3] » .

لقد أبان سيدنا إبراهيم بجلاء فى هذا الموقف أنه إنما يتخذ الشك وسيلة لا غاية ومعبراً لا هدفا وطريقا لتجسيد المعرفة وتثبيت اليقين لا سببا لترسيخ الشك وتأكيده[4] .

---

(١) طبارة : مع الأنبياء ص ١١٨ — ١٠٩ ، والصابونى : النبوة والأنبياء الصفحات ١٦٧ — ١٦٨

(٢) البقرة ٢٥٨ فما بعدها .

(٣) البقرة ٢٦٠ فما بعدها .

(٤) الصابونى : النبوة والأنبياء الصفحات ١٦٠—١٦٢ ، وطبارة : مع الأنبياء الصفحات ١١٩ — ١٢٠

٢ — سقراط

منهج سقراط لا يكاد يختلف عن منهج سيدنا إبراهيم ، ولهذا كان لذلك جانبان فى منهجه الفكرى أحدهما سلبى هو التهكم والآخر إيجابى هو التوليد الذى يرشد إلى الحقيقة .

إن سقراط لم يكن يناقش الناس لكى يعلمهم شيئا بل لكى يبين لهم طريق المعرفة[١] ، ويثير فيهم روح البحث والنقد الذاتى . وكان يحرص ان ينبعث النقد من ذات الفرد ويتولد من إحساسه بالخطأ ، فمنهجه إذن منهج للتفلسف لا منهج لتعليم الفلسفة ، ولم يكن الشك الذى يثيره سقراط غاية فى ذاته ولكن وسيلة للمعرفة التى ينشدها عبر الأسئلة التهكمية والنتائج (التوليدية) أو الاشتقاقية[٢] .

مواقفه الفكرية :

وفى محاورات أفلاطون وكسينوفون أمثلة كثيرة توضح هذه الطريقة ، ولعل من أوضحها تلك المناقشة التى أوردها كسينوفون بين سقراط والشاب المدعى جلوكون بن أريستون فقد كان جلوكون شابا لم يتجاوز العقد الثانى من عمره ولكنه ذو طموح يفوق سنه . فقد رغب فى الحكم مع عدم أهليته له ، وفى السلطة مع عدم إحكامه مسبباتها ، ولما لم يجد نصح الناصحين له ووعظ المشفقين عليه آثر سقراط أن يتدخل إشفاقا على الشاب وإكراما لأخيه أفلاطون .

---

(١) د . أميرة حلمى مطر : الفلسفة عند اليونان ص ١٤٦

(٢) توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ١٣٠

وبدأ منهجه مع الشاب واسترسل معه فى الحوار وأطال معه النقاش والجدل مؤثرا طريق الأسئلة الهادفة والاعتراضات البناءة .

وما كاد سقراط ينتهى من الحوار حتى أدرك الشاب جهله بأمور الاقتصاد والحرب وما إليها من لوازم العمل بالسياسة ، ومن ثم عدم أهليته للقيادة والسلطة[١] .

٣ — **ارسطو :**

فطن أرسطو إلى الشك المنهجى فى كتابه ما بعد الطبيعة ، وفرق بينه وبين الشك المطلق أو الحقيقى ، فأهمل الأخير وأيد الشك المنهجى وأوصى بمزاولته عند البدء بدراسة أى بحث علمى .

مواقفه الفكرية :

لقد كان أرسطو يرى أن هناك علاقة ضرورية تقوم بين الشك والمعرفة الصحيحة ، كما أن هناك علاقة بين الايمان والشك النزيه إذ الأول مغمور فى ثنايا الأخير .

وكان من رأيه أن من يريد أن يكتسب ملكة للتحصيل فلا سبيل لإدراك غايته إلا عبر الشك الذى هو فى الحقيقة ترو وتبصر . ولتجسيد رأيه فقد عقد مقارنة بين من يقومون ببحث علمى من غير أن يسبقوه بشك ، وبين من يسيرون على غير هدى ، فكلا الفريقين فى نظره قد ضلوا

---

(١) د . أميرة حلمى مطر : الفلسفة عند اليونان الصفحات ١٤٦ــ١٤٧ والدكتور إمام عبد الفتاح إمام : مدخل إلى الفلسفة ص ٣٠٣

سواء السبيل لأنهم جهلوا أو تجاهلوا الوسيلة الصحيحة للمعرفة واليقين(١).

٤ — الحارث بن أسد المحاسبى:

لقد كان الحارث المحاسبى متعطشا إلى المعرفة والبحث والاطلاع وإلى الوصول لرأى لا يعتوره الشك ونتيجة يقينية ثابتة لا تزلزل. ولكنه بعد أن بحث زاد شكا بدل أن يزيد إيمانا واضطربت نفسه وخشى أن يأتيه الموت فجأة قبل أن يعتصم بحبل الله المستقيم، فكد وجد ثم يئس من أن يصل إلى النتيجة، ولكن الله وفقه فى النهاية إلى الاتصال بقوم صالحين فسكن اليهم وأخلد، سكن اليهم وأخلد لا لأن منطقهم أوجد عنده اليقين، ولا لأن براهينهم بعثت فى نفسه الاطمئنان، وإنما لأن سيماهم على وجوههم تبعث الثقة وتهدى إلى الرشاد.

مواقفه الفكرية:

لندع المحاسبى نفسه يصور حالته. والنص الذى نثبته الآن من مخطوط له بدار الكتب المصرية اسمه النصائح.

قال المحاسبى بعد مقدمة موجزة:

أما بعد، فقد انتهى إلينا أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة منها فرقة ناجية والله أعلم بسائرها، فلم أزل برهة من عمرى أنظر فى اختلاف الأمة وألتمس المنهاج الواضح والسبيل القاصد وأطلب من العلم والعمل، وأستدل على طريق الآخرة وإرشاد العلماء، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء.

---

(١) توفيق الطويل: أسس الفلسفة ص ١٣٠–١٣١، والدكتور إمام عبد الفتاح إمام: مدخل إلى الفلسفة ص ٣٠٣–٣٠٤

(١) وتدبرت أحوال الأمة وتظرت في مذاهبها وأقاويلها فعقلت من ذلك ماقدر ، ورأيت اختلافهم بحراً عميقا غرق فيه ناس كثير وسلم منه عصابة قليلة ، ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة في اتباعهم وأن الهالك من خالفهم .

ثم رأيت الناس أصنافا ، فمنهم العالم بأمر الآخرة لقاؤه عسير ووجوده عزيز ، ومنهم الجاهل فالبعد عنه غنيمة ، ومنهم المتشبه بالعلماء مشغوف بدنياه مؤثر لها ، ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ملتمس بعلمه التعظيم والعلو ينال بالدين من عرض الدنيا .

ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل ومنهم متشبه بالنساك متحر بالخير لا غناء عنده ولا بقاء لعامه ولا معتمد على رأيه .

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء مفقود الورع والتقى . ومنهم متوادون على الهوى متفقون وللدنيا يتباذلون ورئاستها يطلبون .

ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة بعيدون ، وعلى الدنيا يتكالبون وإلى جمعها يهرعون ، وإلى الاستكثار منها يرغبون ، فهم في الدنيا أحياء وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر والسوء معروف .

منهجه في المعرفة :

فتفقدت في الأصناف نفسي وضقت بذلك ذرعا ، فقصدت إلى هدى المهتدين بطلب السداد والهدى واسترشدت العلم وأعملت الفكر وأطلت النظر ، فتبين لي في كتاب الله تعالى وسنة نبيه وإجماع الأمة أن اتباع الهوى يعمى عن الرشد ويضل عن الحق ويطيل المكث في العمى .

فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي ووقفت عند اختلاف الأمة مرتادا لطلب الفرقة الناجية حذرا من الأهواء المردية والفرقة الهالكة متحذرا عن الاقتحام قبل البيان والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسي .

ثم وجدت باجماع الأمة فى كتاب الله المنزل أن سبيل النجاة فى التمسك بتقوى الله والورع فى حلاله وحرامه وجميع حدوده ، والاخلاص لله تعالى بطاعته والتأسى برسوله صلى الله عليه وسلم .

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء فى الآثار فرأيت اجتماعا واختلافا ووجدت جميعهم يجمعون على أن الفرائض والسنن عند العلماء بالله وأن الفقهاء من الله العاملين برضوانه الورعين عن محارمه المتأسين برسوله صلى الله عليه وسلم المؤثرين للآخرة على الدنيا أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين .

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجمع عليهم والموصوفين أقفو آثارهم وأقبس من علمهم فرأيتهم أقل من القليل ورأيت علمهم مندرسا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء) وهم المنفردون بدينهم .

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء وخشيت بغتة الموت أن يفاجئنى على اضطراب من عمرى لاختلاف الأمة .

فانكمشت فى طلبى عالما لم أجد لى من معرفته بدا ، لم أقصر فى الاحتياط ولم أن فى النصح .

فقيض لى الرءوف بعباده قوما وجدت فيهم دلائل التقوى وأعلام

الورع وإيثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى مجتمعين على نصح الأمة لا يرجون أحدا فى معصيته ولا يقنطون أحداً من رحمته ، ويوصون كل واحد بالصبر على البأساء والضراء والرضاء بالقضاء والشكر على النعماء ، يحببون الله تعالى إلى العباد بذكرهم أياديه وإحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى علما بعظمة الله تعالى وعظم قدرته ، وعلما بكتابه وسنته . فقهاء فى دينه علماء بما يحب ويكره ، ورعين فى البدع والاهواء تاركين التعمق والإعلاء مبغضين للجدل والمراء متورعين عن الاغتياب والظلم والاذى مخالفين لأهوائهم محاسبين لأنفسهم مالكين لجوارحهم ورعين فى مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات تاركين للشهوات مجتزئين بالبلغة من الاقوات ، متقللين من المباح زاهدين فى الحلال مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد مشغولين بشأنهم مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم لكل امرىء منهم شأن يغنيه .

علماء بأمر الآخرة وأهاويل القيامة وجزيل الثواب وأليم العقاب ، ذلك أورثهم الحزن الدائم والهم المضنى فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا الآداب صفات وحددوا للورع حدودا ضاق لها صدرى وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهى ولا يقوم بحدوده مثلى .

فتبين لى فضلهم واتضح نصحهم وأيقنت أنهم العالمون بطريق الآخرة والمتأسون بالمرسلين والمصابيح لمن استضاء بهم والهادون لمن

استرشدهم ، فأصبحت راغبا فى مذهبهم مقتبسا من موائدهم قابلا لأدبهم محبا لطاعتهم ، لا أعدل بهم شيئا ولا أوثر عليهم أحدا .

ففتح الله لى علما اتضح لى برهانه وأنار لى فضله ورجوت النجاة لمن أقر به أو انتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الدين متراكما على قلب من جهله وجحده ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه ، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجبا على ، واعتقدته فى سريرتى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساس دينى ، وبنيت عليه أعمالى ، وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به على وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك وأنى لا أدرك شكره أبدا[1] .

٥ — الامام محمد بن محمد الغزالى :

كان الغزالى متلهفا على المعرفة محبا للاطلاع والدرس والبحث غارقا فى محيط الفلسفة والعلم للدرجة التى قيل عنه فيها إنه بلع الفلاسفة ولم يستطع أن يتقيأهم .

غير أن الغزالى مع كثرة اطلاعه وتنقيبه لم يجد فى المذاهب الفكرية مايرضيه ولم يجد فى الأدلة العقلية المؤسسة عليها هذه المذاهب مايقنعه .

مواقفه الفكرية :

لقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبه وديدنه ومن ثم طفق يبحث عن العلم اليقين الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى

(١) الحارث المحاسبى : النصائح (مخطوط) دار الكتب المصرية .

معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك[١] .

منهجه في المعرفة :

ولما كان هذا الإدراك غير متحقق إلا في الحدسيات والضروريات فقد صرف همه إليها وجذب انتباهه نحوها غير أنه ما إن أنس إليها حتى بدأ الشك يساوره في كل حاسة منها ، وانتهى به طول الشك إلى عدم الثقة فيها ؛ ذلك لأن حاسة منها كحاسة البصر مثلا تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك فتحكم تبعا لذلك بنفي الحركة عليه ولكنها بعد التجربة والمشاهدة بعد ساعة تعود فتؤكد ثبوت الحركة له ، وتنظر إلى الكوكب أيضا فتراه صغيرا في مقدار دينار ، ثم تأتي الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار[٢] .

يمثل هذا وذاك من الشواهد شك الغزالي حتى في الحدسيات والضروريات ونبع ذلك شكه في العقليات التي هي من حيث الضروريات إذ رأى أن ثقته فيها لا تعدو ثقته في المحسوسات ولئن عثر على ما يكذب المحسوسات فلا يستبعد أن يكون هناك حاكم أقوى من العقل يكذب العقليات على أن عدم تجليه لا يدل على استحالته[٣] .

وإزاء هذا وذاك من المواقف الفكرية ازداد على الغزالي شكه وطال عليه أمد القلق والحيرة وأعضل عليه الداء ، فمكث قريبا من

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ص ٧١
(٢) نفسه ص ٧٣
(٣) نفسه ص ٧٤

بشهرين كان فيهما على السفسطة بحكم الحال لا بحكم المنطق والقال .

وأخيرا اجتاز شفا جرف الشك إلى اليقين الثابت والاطمئنان الراسخ ، ولم يكن ذلك بنظم دليـل وترتيب كلام بل — كما يقول — « بنور قذفه الله في صدرى » وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسـعة[١] .

٦ — ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠[١]) .

يكاد يجمع الباحثون على أن ديكارت هو الذى وضع أساس الفلسفة الحديثة ؛ إذ رفض — كما هو معروف — جميع الأساليب الفكرية القديمة ، وأحيا نهج الغزالى فى وضع طريقة تقوم على دعامة من صدق اليقين جاعلا مقياس الحقائق وضوحهـا وجلاءها وظهورها أمام مرآة العقل

منهجه فى المعرفة :

بدأ ديكارت طريقه نحو المعرفة باستعراض الأفـكار الموروثة والمـكتسبة ، فتبين له أنها مشوشـة وباطلة فنبذها وأعرض عنها وادعى أن الصورة والجسم والامتداد والحركة والمـكان من خلق الخيال ، ولـكنه لم يلبث أن تساءل — وقد طرح جميع الموجودات — إن كانت تلك الموجودات المطروحة تشمل وجوده هو شخصياً .

---

(٢) الغزالى : المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ص ٧٥

(٣) من الغريب أن الأستاذ يوسف على يوسف صاحب كتـاب دروس فى الفلسفة يهمـل الحديث عن ديكارت ويدعى أن واضع مذهب الشك هو الفيلسوف الانجليزى (هيوم) راجع ص ١٥٢

وهنا انتهى إلى حقيقة لم يتمكن من زعزعتها ونتيجة لم يتمكن من نقضها ؛ ذلك لأنه وهو يشك ويفكر يقوم بعمل فكرى وكل معلول فلا بد له من علة ، فهذا الشك يستلزم إذن فاعلا ويقتضى وجود ذات مفكرة أحدثته ولا نستطيع أن نتصوره دون أن نتصور منشأه ومصدره بل العكس كلما أمعنا فى الشك قادنا ذلك إلى الاعتراف بوجود تلك الذات الشاكة المفكرة[1] .

الخلاصة :

تلك هى مهمة الشك فى الحياة العقلية وهى — كما ترى — مهمة خطيرة كما أن النتائج التى تترتب عليها إيجابا وسلبا تماثلها فى الخطورة .

وقد دلت الدراسات والتجارب العملية على أن العصور التى لا يظهر فيها الشك يسود الركود حياتها العقلية ويستولى الجمود على نظمها السياسية والاقتصادية ولا يظهر التجديد فى دوائرها العلمية .

كما دلت الدراسات والتجارب العملية كذلك على أن العصور التى يظهر فيها الشك تكثر فيها البحوث العلمية والفلسفية والسياسية

(١) الدكتور يحيى هويدى : مقدمة فى الفلسفة العامة ص ١٢٤ — ١٢٦ ، أ. د. وولف عرض تاريخى للفلسفة والعلم ترجمة محمد عبد الواحد خلاف ص ٥٤ — ٥٥ ، والدكتور نظمى لوقا : الحقيقة تساؤل فلسفى ص ٩٤ فما بعدها ، ومحمد بدر : تاريخ الفلسفة ترجمة حسن حسين ص ١٣ ، ورينيه ديكارت : مقال عن المنهج ترجمة محمود محمد الخضرى الصفحات ١٦ ، ٥٠ — ٥٨ ، وتوفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ١٣٢ — ١٣٣ ، ومحمد على مصطفى . تاريخ الفلسفة ص ٥٦ — ٥٧ ، والدكتور إبراهيم منصور والأستاذ يوسف كرم : دروس فى تاريخ الفلسفة ص ١٣٧ وديكارت : مبادئ الفلسفة ترجمة د . عثمان أمين ص ٥٦ و أ . س . راپورت : مبادئ الفلسفة ترجمة أحمد أمين ص ٣٣ ، والدكتور إمام عبد الفتاح إمام : مدخل إلى الفلسفة ص ٣٠٤ — ٣٠٥ ، وبرتراند رسل ، مشاكل الفلسفة ، الصفحات ١٥٣ — ١٥٥

والاجتماعية وغيرها كما تظهر فيها تبعا لذلك روح الحرية الفكرية والاستقلال الذهنى[1].

على أن الشك نوعان شك منهجى وهو ما ذكرناه وآخر مطلق سنذكره فيما بعد، وهما معا يمثلان معلما من معالم الفكر الفلسفى.

---

(١) أسس الفلسفة الصفحات ١٥١—١٢٨ ومدخل إلى الفلسفة ص ٢٩٨ — ٣٠٥

الشك المطلق

تمهيد :

أنكر أنصار هذا المذهب ممن عرفوا بالسوفوسطائيين كل نزعة عامة تمحو ذات الفرد فى ذات الجماعة كما أنكروا كذلك أن تكون الروح الموضوعية هى الأساس فى كل نظرة فى الوجود والحياة واستعاضوا بكل ذلك نزعة فردية جعلوها المقياس الوحيد فى النظر إلى الأشياء ، الأمر الذى أدى إلى أن يصبح الإنسان هو مقياس كل شىء : مقياس وجود الأشياء الموجودة وما لا يوجد[1] .

وقد ترتب على هذا التغير فى المنهج الفلسفى أن انتقلت مشكلة البحث من عالم الطبيعة إلى عالم الأخلاق والسياسة أو إلى عالم الإنسان[2] وفى هذا الاطار كان للسوفسطائيين دور فكرى خاص كان ومايزال موضع جدل بين العلماء[3] .

---

(١) د . أميرة مطر : الفلسفة عند اليونان ص ١٣٢ ، وعبد الرحمن بدوى : ربيع الفكر اليونانى ص ١٦٨

(٢) أميرة مطر : الفلسفة عند اليونان ص ١٣١

(٣) يوسف على يوسف : دروس فى تاريخ الفلسفة الصفحات ١٠ــ١٢ ، ومحمد على مصطفى : معالم تاريخ الفلسفه حـ١ الصفحات ٥١ــ٥٦ ، وعبده فراج : الفلسفة التوجيهية حـ١ الصفحات ٢٦ــ٣٢ ، و د . يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص٥٧ــ٦٢ وجاء فى المرجع الأخير عنهم ما يلى : فعكس السوفسطائيون الآية وتنزلوا بالعلم الى مستوى الحرفة والصناعة فاحتقتهم الزراية .

لم يأخذوا بالعلم على أنه معرفة الحقيقة ولم يكترثوا لقيمته الذاتية ولا لنظرة العقل التى تدفعه لطلب الكمال الحق بل استعملوا العلم وسيلة لجر منفعة غريبة عن العلم وهزءوا من العقل فكانوا معلمين وخطباء ولم يكونوا حكماء .

هذا هو الموقف الشاذ الأثيم الذى جعل اسمهم سبة على مر الأجيال (ص٥٩) .

فقد رأى بعضهم أن الشك المطلق الذى يتسم به منهجهم الفكرى يناى بهم عن ميدان الشك الهادف إلى ميدان الشك الهادم . .

وبذا ينتظمون مع الشكاك فى نزعة واحدة[1]

ورأى آخرين أن الدور الذى أداه السوفسطائيون لا يماثل دور الشكاك بل ولا يقاربه . . فهؤلاء فى نظر هذا البعض أصحاب فلسفة هادفة لا هادمة غايتها التنوير والتبصير ووسيلتها ذات الفرد ، وباعثها التطور الحضارى للفكر الإنسانى .

على أنه أياً كان الدور الذى أداه السوفسطائيون فى سير الفكر الإنسانى فان المماحكات اللفظية والمغالطات الديالكتيكية[2] التى امتاز

---

(١) الشكاك هم الذين لايشكون إلا حساً فى الشك ويصطفون اللاادرية على العالم .
راجع ديكارت : مقال عن المنهج القسم الثالث ص٤٥ـ٤٦ ، والدكتور نظمى لوقا الحقيقة ص٦٧ ، وفى تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم . . إن الشكاك هم رجال غلوا على أمرهم فقدوا الإيمان بالحق والخير فى بيئة تبلبلت فيها الأفكار وفسدت الأخلاق إلى حد بعيد فانعزلوا فى أنفسهم لايوجبون ولا ينفون وإنما يقول الفرد منهم لاأدرى ص ٣١١ـ٣١٢ من المرجع المذكور ، وأيضاً المعرفة الشنيطى ص ٨ ، وراجع عن ــ اللاادرية محمد جواد مغنية : معالم الفلسفة الإسلامية لبنان ٧٣ ص ٩١

وجاء فى أبحاث الدكتور عبد الحليم محمود عن التصوف والشك ما يأتى : الشاك شخص لا يعترف بحقيقة أو لايعترف بأن هناك طريقاً يوصل إلى معرفتها على فرض وجودها وعبثاً تحاول أن تفهمه بعقيدة ما . إذ هو لايقتنع إلا بالشك ولا يرضى عن رأيه بديلا .
راجع ص٢٧٨ من المنقذ من الضلال مع أبحاث فى التصوف ودراسات عن الإمام الغزالى للدكتور عبد الحليم محمود

(٢) الديالكتيك كلمة يونانية تعنى المناقشة والجدل التى ترمى إلى كشف الحقيقة وكان أرسطو يستعملها بمعنى الاستدلال القائم على الأدلة السائدة وليس على المقدمات اليقينية كالبرهان واستعملها فلاسفة القرون الوسطى بمعنى المنطق الصورى . . على أن هيجل يعتبره منطق الفكر وقانون الوجود حيث أن المعقول وحده هو الموجود ؛ أما ماركس فيستعمله بمعنى قانون الحركة المادية فى الوجود وبالتالى منهج المعرفة بهذا الوجود المادى ص١٨٨

بها منهجهم البرهانى أتاحت لمنتقديهم أن يشيعوا فكرة الهدم عنهم .

لقد كان فى استطاعة البعض منهم — بمنهجه فى المجادلة كما قررنا — أن يظهر الصغير كبيرا والكبير صغيراً ويضفى على القديم البالى سمة الحديث وبريقه وعلى الحديث سمة القديم(١) .

كما كان فى استطاعتهم كذلك حسب رأى منتقديهم إرباك الخصم فى المجادلة وإلباس الباطل أمامه بمهارة ثوب الحق الذى يبهر الأبصار ، عمادهم فى كل ذلك زخرف الكلام وذلاقة اللسان وبلاغة المنطق وشدة المعارضة وسرعة الخاطر وحسن إيراد الحجة شأن المحامى الماهر الذى يتولى الدفاع فلا يزال يفتن فى العبارة ويكثر من الاستشهاد . ويلجأ إلى العاطفة ويثير فى القضاء كامن الوجدان ويسترحمهم لموكله حتى يقضوا ببراءته(٢) .

نماذج من الشك المطلق :

وللتدليل على دعوى الشك الهادم عند السوفسطائيين أورد منتقدوهم أمثلة كثيرة منها :

(أ) شكهم فى إمكان الحكم العقلى (العلم) إذ أورد السوفسطائيون حججا ثلاثا لتأييد زعمهم قالوا :

١ — إن وجدت الحقيقة فهى لا تخلو أن تكون إما محسوسة وإما

(١) د . أميرة مطر : الفلسفة عند اليونان ص ١٢٦ ، وفايدروس ترجمة د . أميرة مطر ص ٢٦٧ : القاهرة دار المعارف ١٩٦٨

(٢) محمد على مصطفى : تاريخ الفلسفة ص ٥٢ طبع مصر ١٩٢٨ — ١٩٢٩ م

معقولة ولكنها ليست محسوسة لأن كل ما هو محسوس فهو مدرك بالحس وليست الحقيقة مدركة بالحس لأن الإحساس بذاته خلو من البرهان وليس يمكن إدراك الحقيقة دون البرهان فالحقيقة ليست محسوسه وهى ليست معقولة وإلا لم يكن شيء محسوس حقيقيا وهذا باطل .

٢ — لا يستطيع الجسم أن يحدث جسما إذ يستحيل أن يحدث شيء شيئا لم يكن موجودا وأن يصير الواحد اثنين ولا يستطيع اللاجسمى أن يحدث لاجسميا لنفس السبب ولسبب آخر هو أن الفعل والانفعال يقتضيان التماس واللاجسمى منزه عن التماس فلا يفعل ولا ينفعل ولا يستطيع الجسم أن يحدث لا جسميا ولا اللاجسمى يحدث جسميا لأن الجسم لا يحتوى طبيعة اللاجسمى واللاجسمى لا يحتوى طبيعة الجسم فالعلية ممتنعة ..

٣ — يذهب الناس عامتهم وخاصتهم إلى أن الظواهر علامات للعالم الخفية ولكن الظواهر أو العلامات تظهر واحدة للجميع ولا تفسر على نحو واحد مثل أعراض الأمراض تظهر للاطباء واحدة ويختلفون فى تأويلها والاختلافات كثيرة من هذا القبيل فى جميع فروع المعرفة فالعلم إذن ممتنع[1].

(ب) شكهم فى وجود اللا وجود ووجود الوجود حيث تعرضوا للقضايا الثلاث : —

الأولى : أنه لا شيء..

---

(١) د . نظمى لوقا : الحقيقة تناول فلسفى ص ٣٣ — ٣٤

الثانية : أنه حتى لو وجد شيء فإن هذا الشيء لا يمكن أن يد

الثالثة : أنه حتى لو أمكن إدراكه فإنه لا يمكن أن يعبر
ويوصل إلى الغير

فى نقض القضية الأولى .

وقد ساقوا أدلتهم على النحو الآتى :

إذا كان هنالك شيء فإن هذا الشيء إما أن يكون لا موج
وإما أن يكون موجوداً وإما أن يكون الاثنين معا .

فى نقض الافتراض الاول :

قالوا فإن كان لاموجودا فإن الشيء الواحد يتصف بصفة ع ة
وهذا محال وذلك لأن اللاوجود معناه عدم الوجود كما أن معناه
ناحية أخرى مادمنا نقول إن شيئاما موجودا هو لاوجود أن اللاو
موجود وعلى هذا فيتصف الشيء بصفة ونقيضها وهذا محال . ثم إ
أعطينا الوجود لللاوجود فإن ذلك يتم بأن تسلب الوجود وجرده ا
تضع هذا الوجود اللاوجود وهذا محال لأنه لا يمكن أن تسلب
الوجود الوجود وإذن فهذا الشيء لا يمكن أن يكون لاموجودا .

وثانيا : لا يمكن هذا الشيء أن يكون موجودا فانه يلاحظ
أنه إما أن يكون قديما وإما أن يكون حادثا فاذا قلنا إنه حا
فمعنى هذا أنه حادث عن شيء آخر وهذا الشيء الآخر سيكون ال
فيكون الوجود إذن ناشئا عن العدم وهذا مستحيل : هذا إذا تصو
أن هذا الوجود قد نشأ عن اللاوجود .

أما إذا قلنا إنه نشأ عن الوجود فهذا أيضاً مستحيل ؛ لأنه كيف يصير الوجود وجودا ، وذلك لأن التغيير معناه الانتقال من حالة إلى أخرى .

هذا وإذا قلنا إنه حادث عن لاوجود وهذا اللاوجود موجود فاننا سنقع إذن فى نفس الخطأ من حيث إن هذا اللا وجود الموجود سينطبق عليه نفس الكلام عن الوجود بحسبانه صادرا عن الوجود .

وإذا كان قديما فمعنى هذا أنه لا ابتداء له وما ليس له ابتداء هو اللامتناهى واللا متناهى لا يمكن أن يوجد فى غيره وإلا لم يكن لامتناهيا ، كما لا يمكن أن يوجد فى نفسه ، لأنه لابد من التفرقة بين الحاوى والمحوى .

وعلى ذلك فانه إذا كان الوجود قديما فانه سيوجد لا فى محل (فى غير مكان) والشىء الذى يوجد لافى محل لا يمكن أن يكون موجودا .

وعلى ذلك فسواء أكان هذا الشىء موجودا قديما أم محدثا فانه لا يمكن أن يكون موجوداً .

فى نقض الافتراض الثانى :

يلاحظ أن الموجود إما أن يكون واحدا أو متعدداً فاذا كان واحدا فمعنى هذا أنه وحدة والوحدة هى الشىء الذى ليس له مقدار مادى وما ليس له مقدار مادى هو لاشىء فاذا كان الوجود واحدا فلن يكون إذن شيئا .

وبعد هذا فإذا كان الوجود متعددا فمعنى أنه متعدد أنه مكون من

وحدات والوحدة كما قلنا لاشيء . وعلى هذا فسيكون الموجود مكونا من عدة لا شيء أى من لاشيء أيضاً .

فى نقض الافتراض الثالث :

قالوا إنه لما كان الشيء لايمكن أن يكون لاوجوداً كما لايمكن أن يكون وجوداً فإنه بالأحرى لايمكن أن يكون الاثنين معاً .

وبهذا يثبت بطلان الفرض الثالث ، ومن هذا كله يثبت بطلان القول بأن شيئاً ما موجودا أو تبعا لهذا ولا شيء موجود .

فى نقض القضية الثانية :

قالوا إن الوجود أو الموجود غير المعلوم وإلا لكان كل معلوم موجودا وحينئذ يكون الخطأ مستحيلا ، ولما كان الخطأ موجودا وممكناً فمعنى هذا أن الموجود غير المعلوم وإذا كانت الحال كذلك فكيف يمكن للوجود أن يكون معلوما مادام الاثنان مختلفين كل الاختلاف .

٣ — فى نقض القضية الثالثة :

قالوا كيف يمكن للأصوات أن نعبر عن المرئيات مع أن الأصل أن الكلمات أو الأصوات تنشأ عن المرئيات ، وحتى لو سلمنا جدلا بصحة هذا القول وهو أن المرئيات يمكن أن توصلها إلى إدراكنا الأصوات نقول إن ذلك معناه أن الشيء الواحد يوجد فى مكانين مختلفين فى آن واحد ، وذلك لأن السامع والقائل إن كان يريد هذا الأخير أن يلقى شيئاً إلى الاول فمعنى هذا أن الشيء الواحد موجود معاً عند السامع وعند القائل .

ولما كان من المستحيل أن يوجد نفس الشيء فى مكانين مختلفين

بقى آن واحد فالفرض الأصلى باطل وتبعاً لهذا فاتصال المعلومات إلى الغير مستحيل[١] .

شكهم فى إمكان الحركة فقد أرادوا حججا أربعا ضدها قالوا :

١ — إن الجسم المتحرك لن يبلغ إلى غايته إلاأن يقطع أولا نصف المسافة إليها ونصف النصف وهكذا إلى مالانهاية ، ولما كان اجتياز اللانهائية ممتنعاً فان الحركة ممتنعة .

وقد سموا هذا الدليل بدليل القسمة الثنائية أخذا من فرض المقدار مركبا من أجزاء غير متناهية :

٢ — إذا فرضنا « أخيل » أو الأرنب ذا القدمين الخفيفين يسابق سلحفاة وهى أبطأ الحيوانات وأن هذه السلحفاة متقدمة عليه بمسافة قصيرة وأنهما يبدآن الحركة فى وقت واحد فان أخيل لن يدرك السلحفاة إلا أن يقطع المسافة الأولى الفاصلة بينهما ثم المسافة الثانية وهكذا إلى مالا نهاية .

وقد سموا هذه الحجة باسم « أخيل » وهى كما ترى تشبه الحجة الأولى ، أو بالأحرى تعتمد على نفس فكرتها .

٣ — إن الزمان مؤلف من آنات غيرمتجزىء وترجع إلى أنه لما كان الشىء فى مكان مساو له فان السهم فى مروقه يشغل فى كل آن من آنات الزمان مكانا مساويا له ، فهو إذن لايبرح المكان الذى يشغله فى الزمن غير المتجزىء ومعنى ذلك أنه ساكن غير متحرك ، وهكذا فى كل آن ، وقد سموا هذه الحجة باسم السهم .

---

(١) عبدالرحمن بدوى : ربيع الفكر اليونانى الصفحات ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩

٤ — إذا فرضنا أن هناك ثلاثة مجاميع كل منها مؤلف من وحدات أو نقط والثلاثة فى ملعب

. . . . ←

→ . . . .

. . . . . .

الواحد يشغل نصف الملعب إلى اليمين والآخر يشغل نصف الياار والثالث فى الوسط .

ولنفرض أن الأول والثانى يتحركان بسرعة واحدة كل إلى الجهة المقابلة بينما الثالث ساكن فى مكانه فإن الواحد منهما يص نهاية الآخر فى زمن هو نصف الزمن الذى يقتضيه للوصول إلى الساكن أى أن الانتقال من إحدى نقط المجموع الساكن إلى النقط تليها يتم فى آن واحد هو ضعف الآن الذى يتم فيه الانتقال من إ نقط المجموع المتحرك إلى النقطة التى تليها فتقطع الحركة بنفس (من حيث إن طول الجميع واحد) وفى زمن معين وفى ضعفها ا فيكون نصف الزمن مساويا لضعفه وهذا خلف وإذن فالحركة وهم سموا هذه الحجة بدليل الملعب [1] .

---

(١) د . أميرة مطر : الفلسفة عند اليونان ص ٩٣ — ٩٤ ، ويوسف كرم : الفلسفة اليونانية ص ٤١ — ٤٢ ، والغزالى : المنقذ من الضلال تحقيق د . عبد الحليم مع أبحاث فى التصوف ودراسات عن الإمام الغزالى ص ٢٨٠ ، وقد فسر اخيل با بيما فسرها صاحب دروس فى تاريخ الفلسفة بأنه البطل اليونانى (ص ٧) وشارل الفلسفة اليونانية ترجمة تيسير شيخ الأرض ص ٤٢ — ٤٣ والدكتور مصطفى الشنيطى : المعرفة ص ٩٧ فما بعدها . على أن ابن منظور فى كتابه لسان العرب فصل حرف اللام مادة ج ١٣ ص ٢٤٤ — يفسر الاخيل بالشاهين وبطائر أخضر على ج لمعة تخالف لونه وبالشقراق وهو مشئوم . تقول العرب : أشأم من أخيل .

الفصل الثانى

الدهشة

تمهيد :

الشك والدهشة توأمان لا يكادان ينفصلان فى سيرهما العلمى وغالبا ماتستتبع الدهشة رغبة ملحة فى المعرفة، على أن الطريق نحوها تحفه الشكوك ويصاحبه القلق وتثيره الدهشة المستمرة عبر المعارف الجزئية التي تعترض طريق المفكر أو المتأمل .

فالدهشة عماد التفلسف كما أنها عماد العلم والفن على السواء ، إنها الحياة الواعية للانسان . هى حياة اليقظة والانتباه التى توقف تيار الرتابة فى حياة الفرد لتثير فيه القلق والحيرة وتدفعه نحو التدبر والتأمل[1] .

فى الدهشة يحتار الفكر مع نفسه . هذه الحيرة هى الدهشة التى لا بد منها لكى يكون فكر على الإطلاق ، وهى الدفعة التى لا بد منها لكى يستيقظ هذا الفكر فيعرف ويجرب أن العالم أعمق وأعظم وأغنى بالأسرار مما توحى إليه به حياته اليومية ، وأن الوجود بما هو موجود غنى بالأسرار ؛ لا لأنه غنى بالتناقض والمشقة والغموض بالنسبة للانسان بل لأن معين أسراره لا ينفد ومنبع نوره لا يغيض .

فى الدهشة تصمت الحياة اليومية ولو للحظة واحدة لترى الحياة . ترفع الموجودات قناعها اليومى لتكشف عن وجه الوجود . على أن الدهشة المذكورة مازالت هى نفسها فى حاجة إلى دهشة حقيقية تخلصها من قيود كل يوم[2] . دهشة تجعل الإنسان يرى المدهش فيما يألف

---

(١) الدكتور يحيى هويدى : مقدمة فى الفلسفة العامة ص ٣٠

(٢) سعيد اسماعيل على : الفلسفة ص ٧٦ـ ٧٧

والغريب فيما اعتاد والمعجزة فيما تقع عليه عيناه كل يوم .. هناك يعرف أنه كان يحسب أنه يرى الأشياء وهو فى الحقيقة أعمى عنها ، وأنه كان يحسب أنه يعرف وهو فى الحقيقة لا يعرف شيئا . هناك يبدأ فعل التفلسف ومعه يبدأ القلق والخطر و يبدأ التفكير الفلسفى[١] .

الدهشة مبدأ يسرى فى كل خطوة من خطوات الفلسفة . . وهى فورة من فورات العاطفة .. كما أنها هى التحديد الذى فيه ومن أجله ينكشف وجود الموجود وهى التناغم الذى من خلاله قبض الفلاسفة اليونانيين التجاوب مع وجود الموجود[٢] .

على أن الدهشة لا تنشأ عادة إلا إثر مشكلة ولا تتفاقم إلا إثر حيرة وقلق ؛ إذ الأصل فى الحياة الفكرية هو الرتابة ولا تتغير رتابة الفكر إلا إثر مشكلة . والمشاكل التى تعترض الفكر أنواع ، منها ما يتصل بالبيئة ومنها ما يتصل بنزعات الفرد وميوله ومنها ما يربط بين هذه وتلك . على أنه أيا كان نوع المشكلة فانها تثير فى الفكر قلقا وحيرة تسبقها دهشة قد تتفاقم وقد تنتهى تبعا لدقة المشكلة وبساطتها وسرعة الوصول إلى الحل وبطئه .

هذا وقد يفكر الإنسان فى مشكلة من المشكلات بدافع من حب الاستطلاع ، على أن حب الاستطلاع لا يلبث أن يتحول إلى رغبة جادة

---

(١) سعيد على : الفلسفة ص ٧٦ـ٧٧

(٢) مارتن هيدجر : الفلسفة ، الميتافيزيقا هيلدرلن وماهية الشعر ترجمة فؤاد كامل ومحمود رجب ص ٦٩ـ٧٠ طبع القاهرة ١٩٧٤

تشغل عليه تفكيره ، ومن ثم يجد نفسه مدفوعا لمعرفة النتيجة إيجابا أو سلبا .

وحب الاستطلاع المذكور ليس قصرا على فرد دون آخر ، كما أنه كذلك ليس محصورا فى ميدان معين لا يتعداه من ميادين المعرفة والبحث .

لقد دفع حب الاستطلاع كثيرا من العلماء والفلاسفة إلى اكتشاف نظريات جديدة واختراعات حديثة لا تزال حية حتى الآن . بل ولا زال حب الاستطلاع يطورها ويعدل فيها ويغيرها بين فترة وأخرى .

إن تاريخ العالم كله يشهد بأنه تاريخ للدهشة أو لحب الاستطلاع سواء أكان ذلك فى مجال العلم أم فى مجال الفلسفة ، والأمثلة على ذلك كثيرة نسجل طرفا منها فيما يلى :

فى مجال العلم :

١ — يكتشف أرشميدس (٢٨٧—٣١٩ ق م) يوما وهو فى الحمام أن أعضاءه التى تغمرها المياه فى الحوض أخف وزنا من تلك التى تطفو على سطح الماء ، فتثير هذه الظاهرة انتباهه ، وتبعث فيه الدهشة ، فلا يلبث بعد البحث أن يكتشف للعالم قانون الأجسام الطافية[١] .

٢ — يرى — نيوتن التفاحة تسقط من الشجرة على الأرض ، فيفكر مليا فى هذه الظاهرة التى ألف الناس جميعا رؤيتها دون دهشة

---

(١) توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ١٦٥

فتدبر ثم لايلبث أن يهديه تفكيره أو تؤدى به دهشته إلى اكتشاف قانون الجاذبية الأرضية[١] .

وفى مجال الفلسفة :

١ — يلاحظ الإمام الغزالى أن هناك فرقا كبيرا بين ما يحكم به الحس وما يحكم به العقل ، فبينما يؤكد الحس البصرى مثلا أن الظل واقف غير متحرك يؤكد العقل ، اعتمادا على التجربة والمشاهدة بعد ساعة ، أنه متحرك ذرة ذرة بصورة يستحيل معه فيها الوقوف . وبينما يؤكد الحس أن الكوكب صغير مقدار دينار يؤكد العقل اعتمادا على الأدلة الهندسية أنه أكبر من الأرض فى المقدار[٢] .

وإثر الدهشة التى تنتاب الغزالى من جراء مايحكم به الحس ويخالفه فيه العقل يقف الغزالى موقف المفكر الحائر ، فلايلبث أن يهديه تفكيره إلى نبذ الإيمان بالحس والعقل على السواء .

---

(١) فلويد دارد : كتاب أئمة العلم والاختراع ص ٤٨

(٢) الإمام الغزالى : المنقذ من الضلال ص ٧٣

الفصل الثالث

التأمل والتفكير

تمهيد :

لعلنا لانبالغ إن قلنا إن الفلسفة فى صميمها منهج تأمل عقلى وتفكير منطقى مفتاحه الشك وأواره الدهشة وموضوعه المشكلة[1] ومن ثم فهى لازمة للانسان لزوم التنفس للحياة ، فهو لايكاد يستغنى عنها سواء اقتنع بها أو لم يقتنع إذ هو فى كلتا الحالتين مطالب بالتفلسف . يقول أرسطو إذا لزم التفلسف وجب أن نتفلسف وإذا لم يلزم التفلسف وجب أيضاً أن نتفلسف حتى نثبت عدم لزوم التفلسف[2] .

والإنسان مهما اختلفت آراؤه وتباينت ثقافته وكثرت أو قلت تجاربه هو هو دائما شغوف بالمعرفة محب الاستطلاع دائب على التأمل والتفكر لاينفأ يخوض غمار المشاكل ويصارع المعقد من القضايا والمسائل باذلا فى سبيل المعرفة جهده ووقته وماله سعيدا بما يلاقيه فى سبيلها من تعب ، فرحا بما يزجيه لأجلها من وقت ومال .

ميدان المعرفة :

إن ميدان المعرفة من الوسع بحيث لا يكاد ينتهى الإنسان من مشكلة إلا وجد نفسه مواجها بأخرى ولا يتوصل إلى حل ما فى قضية معينة إلا وجد نفسه أمام قضية أخرى تستحق التأمل والتفكر ، بل إن الإنسان حتى فى الفترة التى لايواجه فيها مشكلة يظل مواجها لمشكلة

---

(١) الشنيطى : المعرفة ص ٢٧ ، وبرتراند رسل ، مشاكل الفلسفة ص ٦٠

(٢) الشنيطى : المعرفة ص ١٥

أخرى هى عدم وجود مشكلة فالمشكلة على كل حال موجودة والتأمل فيها مستمر والتفكير فيها دائم .

على أن مجرد التساؤل أو الدهشة أمام سر من أسرار الوجود لا يكفى لتكوين موقف فلسفى، إذ لا بد أن تثير المشكلة تفكير الإنسان وتتحدى عقله وتنفاعل مع بصيرته فى محاولة لإدراك حل لتلك المشكلة .

النزعة التأملية :

والنزعة التأملية كما تنعكس على غير ذات الإنسان تنعكس كذلك على ذاته فى محاولة منه للتعرف على مالديه من قدرات ، وما فى فكره من امكانيات[١] .

إنها محاولة من الإنسان لامتحان أداة التفكير التى يستخدمها ليطمئن قبل المضى فى استعمالها إلى أنها صالحة للوظيفة التى أنيطت بها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ليلفت النظر إلى القوى غير المرئية التى تنظم عليه حياته وتدير له شئونه ، يستوى فى ذلك أن تكون نتيجة تأمله متفقة مع افتراضاته أو غير متفقة فقديما قال أرسطو إذا لزم التفلسف وجب أن تتفلسف وإذا لم يلزم التفلسف وجب أيضا أن تتفلسف حتى تثبت أيضا عدم لزوم التفلسف[٢] .

هذا ومن المعلوم أننا حين نتكلم عن النزعة التأملية الذاتية لا نعمم الحكم فيها على سواد الناس وعامتهم وإنما نخص ركب البشرية

---

(١) سيد اسماعيل على : الفلسفة ص ٧٨
(٢) الشنيطى : المعرفة ص ١٥

الفلسفى فإن سواد الناس لا يهتم بمشكلة الفكر والتأمل الذاتى وإن شارك فى غيره على قدر ثقافته وقدرته العقلية بل إن ارتداد الفكر على ذاته وانعكاسه على نفسه ليكاد يبدو ظاهرة شاذة أو غير طبيعية ومع ذلك فاننا لا نجانب الصواب إن قلنا إن هذه الظاهرة نفسها لهى من السمات الهامة التى تميز الفيلسوف عن غيره من عامة المفكرين لأن الفيلسوف هو المفكر الذى لا يكاد يكف عن امتحان قدرته الذهنية وسبر أغوارها والعمل على إدراك حدودها .

على أننا لا ندعى أن سبر الفكر وامتحان الذهن كفيل وحده بكشف موضوعات المعرفة وسبر حقيقتها ولكنه فقط وسيلة لإدراك الأشياء على حقيقتها .

الفصل الرابع

الكلية والعمومية

تمهيد :

لئن وصفت الحكمة العملية بأنها حكمة جزئية فان الوصف الأمثل للحكمة النظرية أنها حكمة كلية . ولئن صح إطلاق لفظ الحكيم على من يحسن التصرف فى المسائل الجزئية أو الشخصية فان إطلاقه على من يمارس الحكمة النظرية أصح وأولى[1] ذلك لأن الأخير لا يسمح لغشاوة الجزئيات أن تحجب عنه الرؤية الكلية للمسائل التفصيلية ، كما أنه لا يفتأ يبحث عن الأسس والأصول النظرية الكلية التى تقوم عليها المعتقدات الخاصة ، وهو حين يتناول الموجود أو الحياة أو الانسان أو القيم أو المثل لا ينظر إليها بالمجهر باحثا عن جزئياتها وإنما يشغل فكره بالأصول النظرية الكلية لها . ذلك لأن جزئيات الحياة أكبر من أن يستغرقها وقت فرد من الناس وأن مشاكلها أكثر من أن تحيط بها حلول جميع بنى البشر ومن ثم فإن الاستغراق فيها وإن أفاد فى حل بعض القضايا الجزئية لا يعطى الفرد تصورا كليا عنها فيبقى على الدوام محدود التفكير قاصر النظر معصوب البصر .

---

(١) توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ٥٣ وسعيد اسماعيل : الفلسفة ص ٨٢

خطوات الموقف الفلسفى

إن الموقف الفلسفى يقتضى من الفيلسوف حركتين متلازمتين . لايمكن أن تنفصل إحداهما عن الأخرى .

١ — الحركة الأولى التى يرجع فيها الفكر إلى نفسه مبتعدا عن جزئيات الحياة التى يعيشها فى نوع من الخلوة العقلية والتى يحلل فيها الأشياء بطريقة تأملية رافضا فى هذه الحركة أن يترك نفسه فى تيار الحياة المادى الدارج[1] .

٢ — الحركة الثانية التى يعود فيها الفكر إلى الواقع ليتفهمه بعد أن يكون قد أملى عليه التأمل العقلى فى الحركة السابقة منهجا خاصاً فى البحث يحفزه ألا يحفل إلا بأكثر المسائل عموما كالوجود وموقف الإنسان منه واتصاله به والحركة المستمرة بين الوجود والإنسان وما يشبه ذلك من المسائل الكلية . هذا وعلى الباحث وهو يساوى بين الحركتين السابقتين أن يحذر الانزلاق إلى تيار التفصيلات المادية فيغمره فيض جزئياتها الذى لاينضب ، ويجرفه سيلها الذى لايهدأ ، كما يحذر كذلك الانفصال عن الحياة المادية والانصهار فى بوتقة الحياة العقلية ؛ إذ أن تيار هذه كتلك جارف .

والموقف المحمود هو موقف الوسط كما عبرت عنه ديوتيما تجيب سقراط على سؤاله .

---

(١) الدكتور يحيى هويدى : مقدمة فى الفلسفة العامة ص ٣٥ـ٣٦

من هم الفلاسفة ياديوتيما إن لم يكونوا الحكماء ولا الجهلاء .

نقول إن هذا الأمر واضح حتى للطفل الصغير إنهم أولئك الذين يشغلون من الفئتين مكان الوسط[١] .

أي كما عبر بذلك محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : خير الأمور أوسطها .

بين النظرية والتطبيق :

هذا ويخطىء الذين يتوهمون أن العلوم تقصد إلى المعرفة لذاتها ، وأن التفكير المفرد مقطوع الصلة بمطالب الحياة العملية إذ الواقع أن كل بحث وراء الحقيقة ليس إلا طريقة لإيجاد وسائل تخدم حياتنا العملية ومن ثم كان موضوع التفكير عند ديوبى خطة يراد بها تحقيق فعل من الأفعال[٢] .

كما أن موضوعه عند شيشرون تدبير الحياة العملية للانسان يقول : أيتها الفلسفة أنت المدبرة لحياتنا أنت صديقة الفضيلة وعدو الرذيلة ماذا نكون ؟ وماذا تكون حياة الإنسان لولاك ؟[٣] .

---

(١) د . أميرة مطر : الفلسفة عند اليونان ص ٣٣٣ ، ويوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٤٧ ودكتور زكى اسماعيل : الفلسفة ص ٥٢ — ٥٣

(٢) توفيق الطويل : أسس الفلسفة ٤٠٥

(٣) مدخل إلى الفلسفة ص ٢٢

الفصل الخامس

الاستقلال

أو

الحرية الفكرية

الاستقلال أو الحرية الفكرية(١)

تمهيد :

تكاد تكون الفلسفة هي العلم الوحيد الذي يستقل كل فرد فيه برأيه وينفرد كل باحث فيه بفكره ، فلا يقلد آراء من سبقوه ولا يتبع أفكار من عاصروه . فلسفته الذاتية هي المقياس الذي يحكم به على نفسه والآخرين . ونتائج دراساته الفكرية هي الميزان الذي يزن به صواب الموافقين وخطأ المعارضين(٢) .

الحق عنده هو ما توصل إليه ، والباطل لديه هو ما لم يركن إليه ، فلسفته صواب تحتمل الخطأ ، وفلسفة غيره خطأ يحتمل الصواب .

ذلك هو منهج كل فيلسوف وطريق كل باحث في ميدان المعرفة

---

(١) يضيف بعض كتاب الفلسفة صفات أخرى لمعالم الفلسفة أو لخصائصها منها : (١) سعة الأفق والاسترشاد بما تشعر به الحرة وتمليه العقل (أسس الفلسفة ٢١٦) ، وهويدى : مقدمة فى الفلسفة العامة ص ٣٣ - ٣٤ (٢) المرونة والتسامح وسعة الصدر والهدوء والاتزان (إمام عبدالفتاح : مدخل إلى الفلسفة ص٨٣ (٣) الارتياب - والتعليق المؤقت للحكم (٤) النظر العقلى (٥) المثابرة (٦) التجرد عن العاطفة والانفعال . أسس الفلسفة ص ٢١٦ — ٢١٨

وعندى أن سعة الأفق من سمات كل مثقف فيلسوفا كان أم غير فيلسوف — أما المعرفة والهدوء فهما صفتان خلقيتان قد يتصف بهما الفيلسوف وقد لا يتصف — فهما ليسا معلمين من معالم الفلسفة وإنما هما معلمان من معالم طباع بعض البشر (حود : فصول فى الفلسفة ومذاهبها ص ١١ و ١٧٥) أما الصفات الأربع الأخيرة فهى فى الواقع تكرار لما ذكرناه أو أشرنا إليه فى الهامش إذ الارتياب هو الشك — والنظر العقلى أو المثابرة هما التأمل والتجرد عن العاطفة هو نفس موضوع الحرية الفكرية إذ لو كان الفكر أسير العاطفة أو الانفعال لما كان فكراً حراً ولما اتصف بالاستقلال .

(٢) الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد .

الفكرية . إنه المنهج الذى يجسد مسار الفلسفة غير الملتزمة عن غيره من مسارات الفكر الملتزم دينيا كان هذا الفكر أم علميا أم غير ذلك.

الفلسفة الملتزمة وغير الملتزمة :

ولئن كانت الفلسفة الملتزمة تبدأ من منطلق عقائدى محدد وتسلم بموضوع فكرى معين[١] فان الفلسفة غير الملتزمة لا تسلم بشىء قط قبل بحثه وتحليله والبرهنة عليه ، كما لا تقبل شيئاً على أنه حق ما لم تعلم يقيناً أنه كذلك[٢]. فموقف الفيلسوف إذن موقف قاض عادل تعرض عليه قضية لا يكون فيها رأيا حتى يسمع حجج هؤلاء ويزنها كلها بميزان دقيق من غير تحيز ثم يكون فيها رأيه ويصدر فيها حكمه[٣] .

العلم اليقينى فى الفلسفة :

والعلم اليقينى فى الفلسفة هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى فيه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه — مثلا — من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا ولا إنكارا فانى إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة . فلو قال لى قائل لا : بل الثلاثة أكثر بدليل أنى أقلب العصا ثعبانا وقلبها وشاهدت ذلك منه لم أشك بسببه فى معرفتى ولم يحصل لى منه

(١) الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١٩

(٢) ديكارت : مقال عن المنهج ترجمة محمود محمد الخضرى من المقدمة .

(٣) وأحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٨

إلا التعجب من كيفية قدرته عليه . فأما الشك فيا علمته فلا[١] .

فالاستقلال إذن أو الحرية الفكرية هى عماد الفيلسوف فى الوصول إلى المعرفة التى لا تقبل الشك . المعرفة التى لا تكتسب من الوراثة أو البيئة أو المدرسة أو المجتمع وانما من ذات الفرد .. حيث يفك نفسه من رابطة التقليد ويكسر من فكره قيد العقائد الموروثة فلا يكون لغير عقله عليه سلطان ولا لسوى فكره عليه موجه[٢] الحرية التى تتيح له انتقاد رأى أستاذه[٣] ورأى والده[٤] ورأى الناس أجمعين[٥] بل تتيح له انتقاد رأيه هو شخصيا فيما هو قبل معلومات يتطرق إليها الشك ويشوبها الخطأ والنسيان[٦] .

---

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ص ٧١ — ٧٢ هذا ويلاحظ أن الدليل الذى استعمله ديكارت للوصول الى المعرفة الحقة يشبه حتى فى تفصيلاته وأمثلته دليل الإمام الغزالى — قارن دليل ديكارت فى كتابه مقال عن المنهج القسم الأول — بما جاء فى كتاب الغزالى المنقذ من الضلال .

(٢) كارل يسبرز : نهج الفلسفة ترجمة الدكتور عادى العوا الصفحات ١٦١ — ١٦٢ وديكارت مقال عن المنهج ص ١٥ وهامش نفس الصفحة ، وأسس الفلسفة ص ٢١٤

(٣) مثاله ماحدث من أرسطو (إنى أحب أفلاطون وأحب الحق ولكن حبى للحق أعظم) مدخل إلى الفلسفة ص ٨٤

(٤) مثاله ماحدث من سيدنا إبراهيم عليه السلام :
(يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك .. : الخ مريم ٤٣) .

(٥) مثاله ماحدث من المحاسبى والغزالى وديكارت .

(٦) مثاله ماحدث من الغزالى وراجع أيضا هويدى : مقدمته مع الفلسفة العامة ص ٣٢ — ٣٤

فى إطار الدين

تمهيد :

لئن كان موضوع الفلسفة العقلية طبيعيا مكتسبا بالعقل أو الحس[١] متطورا بالدربة والمران فإن موضوع الفلسفة القلبية فوق الطبيعة تتعدى وسيلة المعرفة فيه الاطار السابق لتشمل إلى جانبه .

٢ — العلم اللدنى أو المعرفة الغيبية .

٣ — الفراسة .

٤ — الرؤى .

٥ — الوحى[٢] .

ولئن كان عماد الفلسفة العقلية مبنيا على الحسيات والضروريات[٣] فإن عماده فى مجال الفلسفة القلبية قائم على ما هو أوثق منها وأثبت بل أعم وأشمل .

ولئن كان المصدر المباشر للفلسفة العقلية (غير الملتزمة) ذات الفرد فإن المصدر المباشر للفلسفة القلبية ذات الاله الخالق[٤] .

---

(١) توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ٣٥٤ والدكتور محمد على أبو ريان أصول الفلسفة الإشراقية ص ٢٣٥

(٢) د . مدكور ويوسف كرم : دروس فى تاريخ الفلسفة ص ٤٨

(٣) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ٧٣ وابن خلدون : المقدمة ومحمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ص ٢١ و د محمد كمال جعفر : دراسات فلسفية وأخلاقية ص ٨٠ فما بعدها و د. على أبو ريان : أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردى ص ٣٢٥ و د إبراهيم إبراهيم هلال : نظرية المعرفة الأشراقية وأثرها فى النظرة إلى النبوة ج ١ ص ١١١ فما بعدها وص ١٣٣ فما بعدها .

(٤) محمد رشيد رضا ، الوحى المحمدى ص ٣١ فما بعدها .

فالفلسفة القلبية إذن تباين الفلسفة العقلية فى الالتزام والوسيلة والمصدر المباشر[١] وهى على هذا تشرف على الفلسفة العقلية إشرافا يمكنها من توجيهها وإصلاح خط سيرها[٢] بل تمهيد هذا الخط بالأسس والمبادىء التى هى بمثابة — الضروريات فى التفكير .

قوام الفلسفة القلبية :

إن قوام الفلسفة القلبية يعتمد على التوفيق بين مقتضيات الشرائع وموحيات العقول[٣] حيث إنه لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول فكلاهما لازم للآخر كما يقول الإمام الغزالى ، ويضيف وهو يلخص اتجاه هذه المدرسة قوله : الواجب المحتوم فى قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد والاعتماد على الصراط المستقيم فكلا طرفى قصد الأمور ذميم وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر ، وينكر مناهج البحث والنظر أو يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر صلى الله عليه وسلم وبرهان العقل هو الذى عرف به صدقه فيما أخبر وكيف يهتدى إلى الصواب من اقتفى محض العقل واقتصر وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر . فليت شعرى ! كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العى

---

(١) دكتور : مدكور وكرم . دروس فى تاريخ الفلسفة ص ٤٨ — ٤٩ والدكتور محمد على أبو ريان أصول الفلسفة الإشراقية ص ٣١٤ و د. محمد كمال : من قضايا الفكر ص ٦٦

(٢) دروس فى تاريخ الفلسفة ص ٤٨

(٣) الرازى : أساس التقديس ط القاهرة (غفل من التاريخ) ص ٢١٠ فما بعدها والدكتور : محمد كمال ابراهيم جعفر : دراسات فلسفية وأخلاقية من ٨١ فما بعدها و د. محمد كمال جعفر : من قضايا الفكر الإسلامى .

والحصر أو لا يعلم أن خطا العقل قاصر منحصر هيهات قد خاب على القطع والبتات وتعثر باذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات .

فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والاذاء ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء فأخلق بأن يكون طالب الاهتـــداء المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر فى غمار الأغبياء .

فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضا للاجفان فلافرق بينه وبين العميان . فالعقل مع الشرع نور على نور ، والملاحظ بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور[١] هذا ويتضح من النص السابق أن المدرسة الفلسفية القلبية أو الغيبية ترى أن الطريق المؤدى إلى المعرفة ليس قصرا على العقل وحده كما أنه ليس قصرا على القلب وحده فكلاهما يكمل الآخر ويدعمه . كما ترى أن ظن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيقا رحمة الله الواسعة[٢] ذلك لأن تحديد صفات الشىء وكل ما يلزم عنه إنما يأتى تبعا لتحديد ماهيته ، فبالقدر الذى نعرف به ماهية الشىء تـكون معرفتنا لخواصه وصفته التى تلزم عنه .

ومعلوم أن حقيقة الله وصفاته غير حقيقة الإنسان وصفاته ، كما أن ماهية المعقول الصرف غير ماهية المحسوس . ومن ثم فإنه من غير

---

١) الإمام الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٣ — ٤

(٢) الإمام الغزالى : المنقذ من الضلال تحقيق الدكـتور عبد الحليم محمود ص ٧٥ .

الممكن أن تنتج أو تدرك معرفة أخرى تبنى على المحسوس وأخرى لاصلة لها بالمحسوس . . على أن غاية ما تدركه مثل تلك المعرفة أنها تؤكد وجود المعقولات أو وجود الله إعتقادا على ما تخلفه تلك المؤثرات من أثر هذا وتبقى ماهية تلك المؤثرات خارجة عن نطاق تلك المعرفة بعيدة عن إدراكها حيث إن طبيعة تركيب العقل من هيولى وصورة تحول بينه وبين إدراك الحقائق الأخرى التى تخالفه فى التركيب أو يستحيل عليها التركيب فمجال العقل إذن — وإن بدا غير محدود — إلا أنه فى الواقع محدود وقاصر كما أن مدركاته كذلك وإن بدت غير محدودة إلا إنها فى الحقيقة محدودة وقاصرة[1] .

ويكفى أن نذكر أن الإنسان مثلا وإن ادرك وجود فكر له أو عقل إلا أنه لايدرك حقيقة ذلك الفكر والعقل وأنه وإن أدرك وجود محدث له — أو خالق — فهو لايدرك ماهية ذلك المحدث بل ولا ماهية صفاته[2] . بل إن الإنسان لايدرك ماهية السعادة ولا الشقاء[3] . كما لا يدرك ماهية الإرادة والعلم — القدرة والسمع والبصر والكلام والذوق والشم واللمس والأحلام ، وغيرها من المعقولات ، وهو كذلك لا يدرك كثيراً من أسرار الغيب مثل حقيقة الفراسة وكيفية تأثير العين وكيفية تأثير الرقية والتحصين وكيفية حياة الشهداء بعد

(١) عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ص ١٣٥ وتوما لاركونى : الخلاصة اللاهوتية .

(٢) إميل بوترو : العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ص ٢٢٩

(٣) يوسف موسى : بين الدين والفلسفة ص ١٠٥ نقلاعن كتاب ابن رشد والرشدية .

موتهم وقبل البعث بل وماهية الوحى وكيميته وحقيقة الملك والشيطان وماهية الوسوسة وكيفيتها ، وما إلى ذلك من الحقائق الدينية التى أشارت إليها الكتب السماوية وأكدتها أقوال الأنبياء ودلت عليها التجارب وأبرزها الأثر المحسوس أو المعقول .

وسائل المعرفة :

إن كل تلك الحقائق تسمو على مجال العقل وتعز على إدراكه[(١)] وإن محاولة منه لإدراكها هى محاولة فاشلة يرتد العقل منها وهو حسير ؛ ذلك لأن مرد تلك المعارف راجع إلى النفوس البشرية ، وهذه ذات وسائل مختلفة فى إدراك المعرفة فمنها ماهو :

١ — عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحانى فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعانى من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص تستفاد به العلوم التصورية والتصديقية التى هى مجال للفكر وكلها خيالى منحصر نطاقه إذ هو من جهة مبدئية ينتهى إلى الأوليات ولا يتجاوزها وإن فسد فسد ما بعدها وهذا هو فى الأغلب نطاق الإدراك البشرى الجسمانى الذى تحدثنا عنه فى الاطار الأول وإليه تنتهى مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم[(٢)] .

---

(١) محمد يوسف موسى : بين الدين والفلسفة ص ١٠٥ وتهافت التهافت لابن رشد ص ٢٥٥ ، ٥٨١

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٣

ثانيها صنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني بالإدراك الذى لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التى هى نطاق الإدراك الأول البشرى ، ويسرح فى فضاء المشاهدات الباطنية وهى وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها ، وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية وهى الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة فى البرزخ(١) وهذا النوع من الإدراك يسمى بأسماء مختلفة منها :

(ا) العلم اللدنى

(ب) الإدراك المباشر

(حـ) الإدراك الحدسى

(د) الكشف

(هـ) الإلهام

وهذه كلها على اختلاف ألفاظها تعنى مدلولا واحدا نتنال المعرفة فيه إلى الذهن العارف عن طريق الالهام والتنوير(٢) .

الفراسة :

ثالثها صنف أكسبته الحنكة والتجربة وأتاح له الصفاء الفكرى القدرة على الفراسة فاتخذها وسيلة الادراك ، وصار يعرف بها أخلاق الناس من أحوالهم الظاهرة كالألوان والأشكال تأسيا بقوله تعالى : إن فى

---

(١) نفسه ص ٩٣

(٢) د. أبو ريان : أصول الفلسفة الاشراقية ص ٣٠٠ .

ذلك لآيات للمتوسمين . وقوله أيضا : تعرفهم بسيماهم . وبقول رسوله صلى الله عليه وسلم : اتقوا فراسة المؤمن[١] .

وهذا النوع من الإدراك يشترك فيه الأولياء كما يشترك فيه خاصة المؤمنين حيث تكون وسيلة المعرفة للأولين نابعة من الكرامة وإصابة الظن والحدس ووسيلة المعرفة للآخرين نابعة من علم كسبي عماده الدلائل والتجارب والخلق والأخلاق .

ولابن سينا كما لغيره تصنيف في هذا النوع من الإدراك[٢] على أن أشهر من عرفوا بممارسته :

١ — امرأة العزيز حيث دلتها فراستها على أن سيدنا يوسف عليه السلام سيأسر لب غيرها من النساء كما أسر لبها فصدقت فراستها وبلغ من إعجاب النساء به مبلغا أنساهن أنفسهن حيث قطعن أيديهن عما كن يحملنه من سكاكين[٣] .

٢ — ابنة سيدنا شعيب عليه السلام حيث دلتها فراستها في سيدنا موسى أنه قوى أمين وزوج موفق فصدقت فراستها فيه[٤] .

٣ — سيدنا أبو بكر حيث دلته فراسته على أن سيدنا عمر رضي الله

---

(١) لسان العرب فصل الفاء حرف السين مادة (فرس) ج ٨ ص ٤٠ وراجع أيضا عن الفراسة حاجي خليفة : كشف الظنون مجلد ٢ عمود ١٢٤١ — ١٢٤٢

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون مجلد ١ عمود ٨٧٩ وله رسالة أخرى فيها راجع نفس المرجع والمجلد والعمود .

(٣) يوسف ٣١ ، ولسان العرب فصل الفاء حرف السين ج ٨ ص ٤٠

(٤) القصص ٢٦ ، ولسان العرب فصل الفاء حرف السين ج ٨ ص ٤

عنه أكثر الصحابة أهلية لأن يتولى خلافة المسلمين من بعده فكان أن صدقت فراسته فيه[١] .

رابعها : ومنها ما أكسبه النوم تحررا من أسر البدن وقواه وحواسه فخفت تبعا لذلك شواغله فلم يعد يحجبه عن المعرفة حاجب الحس ولا يصده عن الإدراك الحقيقي غلاف البدن .

هذا الإدراك المذكور أو المعرفة المشار إليها تتفاوت قوة وضعفا وجلاء وغموضا باختلاف حال الرائي وشفافية روحه :

والناس في ذلك أصناف ثلاثة : الأنبياء والأولياء وعامة الناس .

رؤيا الأنبياء :

أما الأنبياء فرؤياهم كلها صادقة صدق فلق الصبح[٢] وهي عندهم مصدر أساسي من مصادر المعرفة لأنها لاتنبثق إلا عن قلب يقظ واع لا يدركه النوم إذا أدرك العين، ولا تنال منه الغفلة إذا غشيت غيره[٣] .

والأنبياء كما يطالبون بتبليغ الوحي أو ترجمته إلى عمل محسوس كذلك يطالبون بتبليغ الرؤيا أو ترجمتها إلى عمل مشاهد محسوس .

والأمثلة على ذلك كثيرة أذكر منها :

١ — رؤيا سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فقد أثنى عليه الله تعالى ،

---

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ، ولسان العرب فصل الفاء حرف السين جـ ٨ ص ٠٤ .

(٢) جاء في صحيح البخاري جـ ٩ ص ٢٩ ، في باب التعبير ، وأول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي ما يأتي . عن عائشة رضي الله عنها قالت أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، الخ الحديث .

(٣) كما جاء في صحيح البخاري ما يأتي ج ٢ ص ٩ : « تنام عيناى ولا ينام قلبى » .

ونظمه في سلك المحسنين لأنه صدق الرؤيا التى رآها وترجمها إلى عمل محسوس .

والرؤيا مشهورة ومعروفة عند أصحاب كل الديانات[١] فلن أطيل الحديث بذكرها ويكفى أن أذكر فقط ماورد فى القرآن ، بشأنها يقول تعالى : « قال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى حكماً وألحقنى

(١) جاء فى سفر التكوين . الإصحاح الثانى والعشرون من العهد القديم ما يأتى :

وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال يا إبراهيم فقال هأنذا فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك فبكر إبراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه واسحق ابنه وشقق حطبا لمحرقة وقام وذهب الموضع الذى قال له الله وفى اليوم الثالث رفع ابراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد فقال إبراهيم لغلاميه اجلسا أنتما ههنا مع الحمار واما انا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على اسحق ابنه وأخذ بيده النار والسكين فذهبا كلاهما معا وكلم اسحق ابراهيم أباه وقال يا أبى قال هأنذا يا ابنى قال هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة فقال إبراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابنى فذهبا كلاهما معا .

فلما أتيا الى الموضع الذى له قال الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط اسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه فناداه ملاك الرب من السماء وقال ابراهيم . ابراهيم فقال هأنذا فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا لأنى الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى فرفع ابراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه . فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يراه ، حتى أنه يقال اليوم فى جبل الرب يرى .

ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال بذاتى أقسمت يقول الرب إلى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك إبنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطىء البحر ويرث نسلك باب أعدائه وتتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولى . ثم رجع إبراهيم إلى غلاميه فقاموا وذهبوا معاً إلى بئر سبع ، وسكن إبراهيم فى بئر سبع .

بالصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام إنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين »[١].

٢ — رؤيا سيدنا يوسف عليه السلام .

وهذه أيضا أشار إليها القرآن الكريم بقوله « إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين[٢] ».

كما أشار إليها كذلك بقوله : « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا[٣] » .

٣ — رؤيا سيدنا يعقوب عليه السلام :

وهذه أشار إليها الإصحاح الثامن والعشرون من سفر التكوين حيث جاء فيه ما نصه : فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حارات

---

(١) الصافات ٩٩ — ١١١

(٢) يوسف ٤ — ٥

(٣) يوسف ٩٩ — ١٠٠

وصادف مكانا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع فى ذلك المكان ورأى حلماً وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء وهو ذا ملائكة صاعدة ونازلة عليها وهو ذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم لبيك وإله إسحق والأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك. ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالا وجنوباً ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض وها أنا معك وأحفظك حيث تذهب وأردك إلى هذه الأرض لأنى لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به .

فاستيقظ يعقوب من نومه وقال حقاً إن الرب فى هذا المكان وأنا لم أعلم وخاف وقال ما أرهب هذا المكان ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء ، وبكر يعقوب فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل ولكن اسم المدينة أولا كان لوز ونذر يعقوب نذرا قائلا إن كان الله معى وحفظنى فى هذا الطريق الذى أنا سائر فيه وأعطانى خبزاً لآكل وثياباً لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبى يكون الرب لى إلها وهذا الحجر الذى أقمته عمودا يكون بيت الله وكل ما تعطينى فإنى أعشره لك[1] .

---

(١) سفر التكوين : ٢٨ : ١٠ـ٢٢

٤ — رؤيا سيدنا سليمان عليه السلام :

وهذه أشار إليها الاصحاح الأول من أخبار الأيام الثانى من العهد القديم حيث جاء فيه ما نصه : فى تلك الليلة تراءى الله لسليمان وقال له اسأل ماذا أعطيك فقال سليمان لله إنك قد عملت مع داؤد أبى رحمة عظيمة وملكتنى مكانه والآن أيها الرب الاله ليثبت كلامك مع داؤد أبى لأنك قد ملكتنى على شعب كثير كتراب الأرض فأعطنى الآن حكمة ومعرفة لأخرج أمام هذا الشعب وأدخل لأنه من يقدر أن يحكم على شعبك هذا العظيم ... الخ[1] .

على أن النص السابق ورد بصورة أوضح فى سفر الملوك إذ ورد فيه ما نصه . وفى جبعون تجلى الرب لسليمان فى الحلم ليلا وقال الله اطلب ما أعطيك فقال سليمان قد صنعت إلى عبدك داؤد أبى رحمة عظيمة بحسب سلوكه بين يديك بحق وبر وإستقامة قلب معك وحفظت له تلك الرحمة العظيمة ورزقته ابنا يجلس على عرشه كما هو اليوم الآن أيها الرب إلهى أنت ملكت عبدك مكان داؤد أبى وأنا غلام صغير السن لا أعرف أن أخرج وأدخل وعبدك فيما بين شعبك الذى اخترته شعب عظيم لا يحصى ولا يعد لكثرته فهب عبدك قلباً فهما ليحكم بين شعبك ويميز بين الخير والشر لأنه من يقدر أن يحكم بين شعبك هذا الكثير فحسن الكلام فى عين الرب لأن سليمان سأل هذا الأمر فقال له الله بما أنك سألت هذا الأمر ولم تسأل أياما كثيرة ولا سألت لنفسك

(١) العهد القديم، الأصحاح الأول من أخبار الأيام الثانى رقم ٧ ـ ١٠

الغنى ولم تطلب نفوس أعدائك ، بل سألت لنفسك تمييزا لتفقه الحكم
فهأنذا قد فعلت بحسب كلامك هأنذا قد أعطيتك قلبا حكيما فهما . .
واستيقظ سليمان فإذا هو حلم[١] :

٥ — رؤيا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

والرؤى التى وردت عنه عدة جمع بعضها الإمام البخارى فى صحيحه
تحت عنوان باب التعبير ، وأول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه
وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة[٢] .

وكان مما جاء فى ذلك الباب وغيره ما يلى :

(ا) عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أريتك
قبل أن أتزوجك مرتين ، رأيت الملك يحملك فى سرقة من حرير فقلت له
اكشف فكشف فإذا هى أنت فقلت إن يكن هذا من عند الله يمضه ثم
أريتك يحملك فى سرقة من حرير فقلت اكشف فكشف فإذا هى أنت ،
فقلت : إن يكن هذا من عند الله يمضه[٣] .

(ب) إنى رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين[٤] .

(ج) إنى قد رأيت فى منامى بقرا تذبح حولى فأولتها خيراً ورأيت
فى ذباب سيفى ثلما فأولته هزيمة ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة
فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم[٥] .

---

(١) سفر الملوك الثالث ٣ : ٥ ـ ١٥

(٢) صحيح البخارى ج ٩ الصفحات ٢٩ فما بعدها إلى ص ٤٦

(٣) نفسه ج ٩ ص ٣٦

(٤) اللابتان حرتان تكتنفانها الواحدة لابة وهى الحرة ذات الحجارة السود راجع
لسان العرب .

(٥) صحيح البخارى معجم الأحلام ص ٦٦

(د) وروى كثير من المفسرين عند تفسيرهم لقوله تعالى: لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، مايلى :

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه قبل خروجه إلى المدينة أو بالحديبية أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا وقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها فى عامهم وقالوا إن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبى وناس معه والله ماحلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام . فأنزل الله الآية الكريمة : لقد صدق الله ورسوله الرؤيا الحق ، ليؤكد لهم صدق رؤيا الرسول عليه السلام وليطمئنهم بأنهم داخلو المسجد الحرام حتما[1] .

رؤيا الأولياء :

أما رؤيا الأولياء فهى وإن كانت تقل عن رؤيا الأنبياء إلا أنها كذلك تعد مصدرا من مصادر المعرفة ولونا من ألوان الإدراك البشرى .

وعلى الرغم من أن الأحاديث النبوية التى وردت فى شأن الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له لم تحدد النسبة المئوية لصدق تلك الرؤيا — بالمقارنة لرؤيا الأنبياء فهى كما جاء فى الأحاديث إما :

١ — جزء من ثلاثة وأربعين جزءا من النبوة .

---

(١) أبو حيان : التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط جـ ٨ ص ١٠١ ط ١٣٢٨ هـ مصر : مطبعة السعادة . وتفسير البيضاوى ص ٤٩١ طبع المطبعة البهية المصرية سنة ١٩٣٥م والصاوى على الجلالين جـ ٤ ص ٨٨ طبع عيسى البابى الحلبى .

٢ — أو جزء من سبعين جزءاً من النبوة .

٣ — أو جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

على أنها إن كانت هذه أو تلك[1] أو أقل أو أكثر[2] فهى، لا شك من المبشرات والمبشرات هى الحلقة الواصلة بين الإدراك النبوى وإدراك الأولياء أو الرجال الصالحين . جاء فى الحديث لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له . قالوا : وما المبشرات يارسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له[3] .

هذا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشجع أصحابه كل يوم[4]

---

(١) راجع صحيح البخارى ج ٩ ص ٣٠ — ٣١ وصحيح مسلم ج ٧ ص ٥٢ — ٥٤ ومقدمة ابن خلدون الصفحات ٩٨ — ٩٩ — ٤٥٠ و د. ابراهيم ابراهيم هلال : نظرية المعرفة الإشراقية وأثرها فى النظرة إلى النبوة ج ١ ص ١٣٨ فما بعدها وقد ورد فى نفس الصفحة إشارة إلى روايات أخرى فى الحديث تبدأ بأربعة وعشرين وتنتهى بستة وستين .

(٢) جاء فى مقدمة ابن خلدون ص ٩٨ مايلى : وليس العدد فى جميعها مقصودا بالذات وإنما المراد الكثرة فى تفاوت هذه المراتب . على أن صاحب كتاب نظرية المعرفة الإشراقية يرى أن المراد فصل مابين الرؤيا الصادقة والنبوة بهذه الفوارق البعيدة ج ١ ص ٩٣٨

(٣) صحيح البخارى ج ٩ ص ٣١ ونصها فيه : باب المبشرات . حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى حدثنى سعيد بن المسيب أن ابا هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة وراجع أيضا ابن خلدون المقدمة ص ٩٩ ، ٤٥٠

(٤) جاء فى المقدمة ص ٤٥٠ ما يأتى : وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا انفتل من صلاة الغداة يقول لأصحابه : هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا .

على إبراز هذا النوع من المعرفة قائلا : هل رأى أحدكم من رؤيا[١]"
مريدا بذلك على حد تعبير ابن خلدون أن يستبشر بما وقع من ذلك
مما فيه ظهور الدين وإعزازه[٢] .

وقد كان أحيانا يتبع السؤال بذكر الرؤيا التى حدثت له مساء
يومه السابق[٣] كما أنه كان يقف أحيانا من تعبير بعض الرؤى
موقف المصدق أو موقف المكذب ، والخبر إنما يوصف بالصدق
أو الكذب إن كانت له حقيقة خارجية تطابقه أو لا تطابقه أما إن
لم تكن له حقيقة فإن وصفه بالصدق أو الكذب يصبح لاغيا وغير
ذى معنى .

جاء فى صحيح البخارى أن رجلا أتى رسول صلى الله عليه وسلم فقال
إنى رأيت الليلة فى المنام ظلة تنطف السمن والعسل فأرى الناس
يتكففون منها فالمستكثر والمستقل وإذا سبب واصل من الأرض إلى
السماء فأراك أخذت به فعلوت ثم أخذ به رجل آخر فعلا به ثم أخذ به
رجل آخر فعلا به ثم أخذ به رجل آخر فانقطع ثم وصل .

فقال أبو بكر يارسول الله بأبى أنت وأمى لتدعنى فأعبرها .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : عبر .

قال : أما الظلة فالإسلام .

---

(١) صحيح البخارى ج ٩ ص ٤٤

(٢) ابن خلدون المقدمة ص ٥٠٠

(٣) صحيح البخارى ج ٩ ص ٤٤ — ٤٦

وأما الذى ينطف من العسل والسمن فالقرآن حلاوته تنطف فالمستكثر من القرآن والمستقل .

وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذى أنت عليه تأخذ به فيعليك الله ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به ثم يأخذ رجل آخر فيعلو به ثم يأخذ رجل آخر فينقطع به ثم يوصل له فيعلى به . فأخبرنى يارسول الله بأبى أنت أصبت أم أخطأت ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم : أصبت بعضا وأخطأت بعضا .

وقال : فوالله لتحدثنى بالذى أخطأت .

قال : لا تقسم[١] .

أما القسم الثالث والأخير فهو الأحلام أو أضغاث الأحلام[٢] كما اصطلح على تسميتها[٣] وهذه تختلف عن غيرها من أقسام الرؤى فى أنها باطلة أو على الأصح أن تصديق الواقع لها غير ضرورى وإنما هو اتفاق ، احتمال عدم حدوثه طبيعى بينما احتمال حدوثه غير طبيعى .

وقد نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحلام إلى الشيطان بينما الرؤيا الصالحة إلى الملك ورؤيا الأنبياء إلى الله فقال :

الرؤيا ثلاث ، رؤيا الله من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان[٤] :

---

(١) صحيح البخارى جـ ٩ ص ٤٣ — ٤٤

(٢) الضغث قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس وأضغاث الاحلام الرؤيا التى لا يصح تأويلها لاختلاطها ، فصل الضاد باب الثاء من مختار الصحاح .

(٣) صحيح البخارى جـ ٩

(٤) النص أعلاه منقول من مصدر ثانوى هو مقدمة ابن خلدون ص ٤٥١

يقول ابن خلدون : فالرؤيا التى من الله هى الصريحة التى لا تفتقر إلى تأويل ، والتى من الملك هى الرؤيا الصادقة التى تفتقر إلى التعبير ، والرؤيا التى من الشيطان هى الاضغاث .

سبب المعرفة عن طريق الرؤيا :

هذا والرؤيا عموما من الغموض بحيث لا يدرك الكثير عنها ، شأنها فى ذلك شأن النوم ومن ثم اختلفت الآراء حوله وحولها فهناك من يرى :

١ — أن الرؤى والأحلام[1] نسيج من التذكارات المحدودة أو المهمة حيث أن موضوعاتها تقابل بما يزاوله الإنسان من الأعمال المألوفة وهى تتعلق بأشياء واضحة أو غامضة وبأشخاص معروفين أو مجهولين :

على أنه إن كانت هذه أو تلك فهى تتأثر تأثرا واضحا بمركز الإدراك الحسى .

فمن الأحلام ما يتألف من أمور تلمس أو تسمع أو تشم أو تذاق ، ومنها ما يتألف من جميع هذه العناصر أو من بعضها ، وأندر الأحلام ما يتألف من أمور تذاق أو تشم

فالحلم الذى تتألف أجزاؤه من أمور رآها الحالم فى يقظته — وهو ما يعرف بالحلم البصرى — سببه تنبه جانب من مركز البصر فى الدماغ

---

(١) جاء فى معجم الاحلام ما يأتى : أطلقت كلمة الرؤيا والجمع رؤى على الأحلام لأن أكثر الأحلام أحلام بصرية أى تتألف فى الغالب من أمور رآها صاحب الحلم فى اليقظة . فكأن هذه التسمية من قبيل تسمية الكل باسم البعض وهذا دليل على ما للحاسة البصر من الشأن الكبير فى أمورنا اليومية ص ٣٨

بعض التنبيه حيث تبقى سائر أجزاء المركز فى راحة وسكون — وما يصدق على مراكز الحواس الأخرى السمع والذوق والشم واللمس وغيرها[1].

٢ — إن السبب فى كون الرؤيا مدركا من مدارك الغيب هو أن الروح القلبى وهو البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب للحمى ينتشر فى الشريانات ومع الدم فى سائر البدن وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية وإحساسها فإذا أدركه الملال بكثرة التصرف فى الاحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشى سطح البدن ما يغشاه من برد الليل انخنس الروح من سائر أقطار البدن إلى مركزه القلبى فيستجم بذلك لمعاودة فعله ، فتعطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم .

ثم أن هذا الروح القلبى هو مطية للروح العاقل من الإنسان والروح العاقل مدرك لجميع ما فى عالم الأمر بذاته إذ حقيقته وذاته عين الادراك وإنما يمتنع عن تعقله للمدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه ، فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع إلى حقيقته وهو عين الإدراك فيعقل كل مدرك فإذا تجرد عن بعضها خفت شواغله فلابد له من إدراك لمحة من عالمه بقدر ما تجرد له وهو فى هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كلها وهى الشاغل الأعظم فاستعد لقبول ما هناك من المدارك اللائقة من عالمه ، وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع إلى بدنه إذ هو مادام فى بدنه جسمانى لا يمكنه

---

(٢) أسبيرو جمري : معجم الأحلام راجع الأحلام وتفسيرها العلمى ص ٥٣ — ٥٤

التصرف إلا بالمدارك الجسمانية والمدارك الجسمانية للعلم إنما هي الدماغية والمتصرف منها هو الخيال فانه ينتزع من الصور المحسوسة صورا خيالية ثم يدفعها إلى الحافظة تحفظها إلى وقت الحاجة إليها عند النظر والاستدلال ، وكذلك تجرد النفس منها صورا أخرى نفسانية عقلية فيترقى التجريد من المحسوس إلى المعقول والخيال واسطة بينهما ، ولذلك إذا أدركت النفس من عوالمها ما تدركه القدرة على الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له ويدفعه إلى الحس المشترك فيراه النائم كأنه محسوس فيتنزل المدرك من الروح العقلي إلى الحسي والخيال أيضا واسطة[١] .

على أن هذا لا يعني أن نتائج هذا النوع من الادراك متساوية أو متطابقة إذ هناك :

(أ) إدراك مصدره الصور المتنزلة من الروح العقلي .

(ب) إدراك مصدره الصور التي أودعها الخيال في الحافظة حين اليقظة .

وللتفريق بين النوعين السابقين اصطلح على تسمية الأول عند المسلمين بالرؤيا والثاني بأضغاث الأحلام[٢]

هذا والإدراك الأول يتفاوت قوة وضعفا بتفاوت قوة الادراك عند المدرك ، فالأنبياء — كما ذكرت — تطابق رؤياهم الواقع مطابقة تامة

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٩٩ ، ١٠٠

(٢) نفسه ص ٤٥١

بينما تنزل عدة درجات منهم رؤيا الأولياء . بل ومن رزقوا شفافية فى الروح وانعتاقا من أسر البدن .

تلك هى أسباب الرؤى وتعليلاتها ، وهى كما ترى تتلون بتلون فكر الكاتب وثقافته واتجاهه الفلسفى .

فالنص الأول — كما هو واضح — يميل فيه صاحبه إلى تفسير الرؤى أو الأحلام تفسيرا ماديا عماده الحواس ، بينما يجمع صاحب النص الثانى بين التفسير المادى والتفسير الروحى متخذا من الخيال حلقة وصل يربط بها بين التفسيرين .

٥ ـ الوحى :

القول الجامع فى معنى الوحى أنه الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوحى إليه بحيث يخفى على غيره .. وهو أنواع نذكر منها :

ا ـ الإلهام الغريزى كالوحى إلى النحل الذى أشار إليه جل وعلا بقوله « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون »(١)

ب ـ الأمر كالذى ورد فى قوله تعالى : « يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها(٢) ».

ج ـ إلهام الخواطر بما يلقيه الله فى روع الانسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحى إلى أم موسى الذى أشار إليه جل وعلا بقوله :

---

(١) النحل ٦٨

(٢) الزلزلة ٥

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم[١] »

وكالذى أشار إليه أيضاً بقوله : « ولقد مننا عليك مرة أخرى . إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل[٢] .

د ـ الإعلام كالذى ورد فى قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء[٣] » .

هـ ـ الإيماء والاشارة كالذى ورد فى قوله تعالى : « فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا[٤] » .

و ـ الإسرار كالذى ورد فى قوله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا[٥] » .

ز ـ إلقاء المعنى فى القلب أو النفث فى الروع كالذى ورد فى قوله تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا[٦] » .

---

(١) القصص ٧

(٢) طـه ٣٨

(٣) الشورى ٥١

(٤) مريم ١١

(٥) الأنعام ١٣ (٦) الأنبياء ١٦٣ .....

وهذا الأخير قصر على الأنبياء لا يشاركهم فيه غيرهم فهم مفطورون على الانسلاخ من البشرية وجملة جسمانياتها وروحانياتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى بحيث يصير الفرد منهم فى لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملأ الأعلى فى أفقهم وسماع الكلام النفسانى والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة[1] فيدرك أثناء ذلك إدراكا لا يماثله إدراك البشر ويتلقى معرفة لا تماثل معرفة البشر ويستخدم وسيلة فى المعرفة والادراك لا يعلم عنها الناس شيئا؛ ذلك لأنها فوق طاقة عقولهم وأسمى من وسائل معرفتهم .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٥٤

ثبت المراجع

ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الانصارى ٦٣٠ / ٧١١ :

لسان العرب

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة طبعة مصورة من طبعة بولاق على تصويبات وفهارس متنوعة .

حاجى خليفة :

كشف الظنون على أساس الكتب والفنون

ابن قتيبة :

الإمامة والسياسة

العهد القديم :

جمعية التوراة الامريكية ، جمعية التوراة البريطانية والاجنبية ، طبع القاهرة ١٩٣٨ م

العهد الجديد :

جمعية التوراة الأمريكية جمعية الثورة البريطانية والأجنبية ، طبع القاهرة ١٩٣٨ م

أبو حيان :

التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط مصر ، مطبعة المعارف

البيضاوى :

تفسير البيضاوى

طبع المطبعة البهية المصرية سنة ١٩٠٥

دكتور مدكور ويوسف كرم .

دروس فى تاريخ الفلسفة

مطبعة مدكور وأولاده بمصر ١٩٥٤

محمد رشيد رضا :
الوحى المحمدى
الطبعة الثانية ١٣٥٢ هـ مطبعة المنار بمصر

محمد كمال جعفر :
دراسات فلسفية وأخلاقية
نشر مكتبة دار العلوم القاهرة ١٩٧٧ م

دكتور إبراهيم هلال :
نظرية المعرفة الإشراقية وأثرها فى النظرة إلى النبوة
نشر دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٧

دكتور محمد كمال إبراهيم جعفر :
من قضايا الفكر الإسلامى دراسة ونصوص
مكتبة دار العلوم القاهرة ١٣٩٨ / ١٩٧٨ م

فخر الدين الرازى :
أساس التقديس طبع القاهرة (غفل من التاريخ)

الدكتور يحيى هويدى :
مقدمة فى الفلسفة العامة
الطبعة السادسة القاهرة دار النهضة العربية ١٦٧٠ م

الدكتور سعيد إسماعيل على :
الفلسفة
طبع القاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م

موريسيه :
الفلسفة النظرية ترجمة نعمة الله كرم

الدكتور محمد فتحى شنيطى :
المعرفة

الدكتور إمام عبد الفتاح إمام :
مدخل إلى الفلسفة — القاهرة الطبعة الثالثة
دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٥
أ — س . رابورت :
مبادىء الفلسفة ترجمة أحمد أمين
يوسف كرم :
تاريخ الفلسفة العامة
دكتور سليمان دنيا :
التفكير الفلسفى الإسلامى
مكتبة الخانجى بمصر الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٧ م
مطبعة السنة المحمدية
محمد بدر :
تاريخ الفلسفة ترجمة حسن حسين
المطبعة المصرية الطبعة الثالثة (غفل من التاريخ)
رينيه ديكارت :
مقال عن المنهج ترجمة محمود محمد الخضرى
محمد على مصطفى :
معالم تاريخ الفلسفة
الدكتور إبراهيم منصور والأستاذ يوسف كرم :
دروس فى تاريخ الفلسفة
ديكارت :
مبادىء الفلسفة ترجمة دكتور عثمان أمين
القاهرة ١٩٧٥ دار الثقافة للطباعة والنشر
دكتور عبد الرحمن بدوى :
ربيع الفكر اليونانى

مطبعة النهضة المصرية ١٩٦٩ م
عبده فراج :
الفلسفة التوجيهية
مطبعة مصر ١٩٤٨
محمد جواد مغنية :
معالم الفلسفة الإسلامية ، دار القلم بيروت لبنان ١٩٧٣ الطبعة الثانية
الغزالى :
الاقتصاد فى الاعتقاد
نشر مكتبة ومطبعة محمد على صبيح ١٣٨٢/١٩٦٧
دكتور عبد الرحمن بدوى :
فلسفة العصور الوسطى
الطبعة الثانية مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٩
توما الاكوينى :
الخلاصة اللاهوتية
أمين بونرو :
العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة
ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣
دكتور محمد يوسف موسى :
بين الدين والفلسفة
دار المعارف بمصر ١٩٥٩
ابن رشد :
تهافت الفلاسفة
ابن خلدون :
المقدمة

الطبعة الثالثة المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٠ هـ

الدكتور توفيق الطويل :

أسس الفلسفة

الطبعة الخامسة ٩٦٧ دار النهضة العربية القاهرة

برتراند راسل :

مشاكل الفلسفة

أحمد أمين :

مبادىء الفلسفة

عباس محمود العقاد .

التفكير فريضة إسلامية

شارل فرنر :

الفلسفة اليونانية ترجمة تيسير شيخ الأرض

نشر دار الأنوار بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٨

الغزالى :

المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود مع أبحاث فى التصوف
ودراسات عن الإمام الغزالى .

عباس محمود العقاد :

إبليس

كتاب الهلال

أبو الحسن على الحسينى :

إلى شاطىء النجاة ترجمة عبد الله عباس الملواروى الندوى

مارتن هيدجر :

ما الفلسفة ما الميتافيزيقا ، هيلدرلن وماهية الشعر ترجمة فؤاد كامل
ومحمود رجب

طبع القاهرة ١٩٧٤ دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة .
فلويد ودارد :
كتاب أئمة العلم والاختراع
الدكتور زكى إسماعيل :
الفلسفة
دار النيل الأزرق للطباعة والنشر مدنى الطبعة الأولى ١٩٧٢
جود :
فصول فى الفلسفة ومذاهبها ترجمة الدكتور عطية محمود هنا والدكتور
ماهر كامل
مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦
الشيخ محمد عبده :
رسالة التوحيد
الطبعة السابعة عشرة القاهرة ١٣٧٦ هـ
أحمد أمين :
ضحى الإسلام
كارل يسبرز :
نهج الفلسفة ترجمة الدكتور عادل العوا
دار الفكر دمشق ١٩٧٥م
الدكتور محمد على أبو ريان .
أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردى
دار الطلبة العرب بيروت ١٩٦٩
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى :
كبرى اليقينات الكونية
الطبعة الثانية دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ٣٩٠ هـ/١٩٧٠م

صحيح مسلم :
صحيح البخارى :
الصابونى :
النبوة والأنبياء
دكتورة أميره مطر حلمى :
الفلسفة عند اليونان
نشر دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٤
الحارث بن أسد المحاسبى :
النصائح مخطوط دار الكتب المصرية
يوسف على يوسف :
دروس فى تاريخ الفلسفة
أ . د . وولف
عرض تاريخى للفلسفة والعلم ترجمة محمد عبد الواحد خلاف مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٤
القرآن الكريم :
ابن أبى أصيبعة :
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء
ديكارت :
مقال عن المنهج — ترجمة محمود محمد الخضرى
طبع القاهرة ١٩٣٠م/١٣٤٨هـ المطبعة السلفية
الدكتور نظمى لوقا :
الحقيقة تنادى الفلسفة
طبع القاهرة ١٩٧٢
الغزالى :
ميزان العمل

دار المعارف بمصر الطبعة الأولى ١٩٦٤
الدكتور محمد على الصابونى :
النبوة والأنبياء
محمد أحمد جاد المولى وآخرون :
قصص القرآن
عفيف عبد الفتاح طبارة :
مع الأنبياء فى القرآن الكريم
الصاوى :
تفسير الجلالين
طبع عيسى البابى الحلبى
اسبيرو جسرى :
معجم الأحلام

فهرس الموضوعات

الصفحة

رقـــم الايداع بدار الكتب ٤١٨٠ / ١٩٧٨